المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

مآخذ ابن الأثير على المتنبي دراسة بلاغية

Ibn al-Atheer's Criticisms of al-Mutanabbi: A Rhetorical Study

بقلم الدكتور

محمود ياسين عوض سيد شناوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

العدد الثاني (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٣/٦٩٤٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مآخذ ابن الأثير على المتنبي دراسة بلاغية

محمود ياسين عوض سيد شناوي

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني : mahmudyasen@yahoo.com

الملخص

لم يعرف التاريخ شاعرا أكثر النقاد من دراسة شعره كالمتنبي؛ فعلى مرّ الزمان وشعره موضع حديثهم، فلا تجد قضية من قضايا الأدب إلا ولشعره الحظ الأوفر منها، وَقد أُلِّفت الكتب فِي تَفْسِيره، وَحل مشكله وعويصه، وكَثُرت المؤلفات على ذكر جيده ورديئه.

وابن الأثير واحد من هؤلاء النقاد الذين اهتموا بشعر المتنبي؛ فأكثر من الاستشهاد به، وبيّن حسنَه وقبيحَه، ومما قاله: "ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساما خمسة، خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر، وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها، وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها، فإنها التي ألبسته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام."

وقد اهتم هذا البحث بدراسة تلك الأبيات التي عابها ابن الأثير على أبي الطيب، ومناقشته فيها، في ضوء ما قاله أهل العلم؛ للكشف عن الوجه الصحيح الذي يتفق وقواعد البلاغة.

الكلمات المفتاحية: مآخذ ابن الأثير ، المتنبي ، دراسة بلاغية.

Ibn al-Atheer's Criticisms of al-Mutanabbi : A Rhetorical Study

Mahmoud Yassin Awad Sayed Shinawi
Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Arabic Language in Cairo, Al-Azhar University.
Email: mahmudyasen@yahoo.com

Abstract

History has not known a poet whose verse has been studied more critically than Al-Mutanabbi. Over the course of time, Al-Mutanabbi's poetry has been the subject of many critics as it deals with every issue of literature, whether little or big. Books have been written to interpret Al-Mutanabbi's verse, solving its problems. Moreover, many works have been composed to record its good and bad traces.

Ibn al-Atheer is one of those critics who were interested in Al-Mutanabbi's poetry. He is one of the most who cited the most of it, as well as explaining its goodness and its badness. Of Al-Mutanabbi's poetry, Ibn al-Atheer once said, "And when I contemplated his poetry with an objective eye, an eye of knowledge whose owner has never gone astray, I found that it can be classified into five categories: Five is for the purpose that is unique to him, five is for the good poetry that others equal it, five is for the average poetry, five is less than that, and five is for the retreating purpose that he does not care about, and its absence is better than its presence. If Abu Al- Tayeb had not said it, Allah would have protected him from its evil. Indeed، such words are the ones that made him to blame and also made him subject for the arrows of other critics.

This research is concerned with studying Abu al-Tayyib's verses that were criticized by Ibn al-Atheer. It will discuss them in light of what other critics had said, hoping to reveal the correct face that conforms to the rules

Keywords: The takeaways of Ibn al-Atheer, Al-Mutanabbi, a rhetorical study.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح الخلق أجمعين، سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلى آله وأصحابه وبعد.

فمن المعلوم أن دراسة الشعر من الأهمية بمكان؛ إذ تعد بابا من أبواب فهم القرآن، وطريقا من طرق بيان إعجازه، إلى حد أن السابقين جعلوها من أبواب التقرب إلى ربهم، وجعلوا الصاد عن دراسته صادا عن دين الله ــ تعالى ــ فأقبلوا عليه؛ يشرحون غريبه، ويظهرون أسراره.

ولقد رزق الله الأمة العربية علماء أجلاء؛ لهم من البراعة في النقد ما ليس لغيرهم، فلم يتركوا شعرا إلا وولوا إليه وجوههم؛ شرحا ونقدا، ونظروا فيه بعين الإنصاف، وتجردوا من هوى النفس إلى العدالة في القول، وما منعهم شنآن قوم أن يلتزموا الإنصاف معهم، فكانت النتيجة علما لا نظير له في علوم الأمم الأخرى.

ولم يعرف التاريخ شاعرا أكثر النقاد من دراسة شعره كالمتنبي؛ إذ كان شعره على مرّ الزمان موضع حديثهم، فلا تجد قضية من قضايا الأدب إلا وشعره له فيها القدح المعلى، ولا مسألة من مسائل البلاغة إلا ولشعره الحظ الأوفر منها، ولا حكمة تأنس النفس بها، ويطير الركبان بذكرها إلا وكان له السبق فيها، فلا عجب أن يتزاحم الناس على شعره بالدرس، يقول أبو منصور الثعالبي:" وَقد أُلِّفت الكتب فِي تَفْسِيره، وَحل مشكله وعويصه، وَكَثُرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وَتكلم الأفاضل فِي الوساطة بَينه وَبَين خصومه، والإفصاح عَن أبكار كَلَامه وعونه، وَتَفَرَّقُوا فرقا فِي مدحه والقدح فِيهِ والنضح عَنهُ، والتعصب لَهُ وَعَلِيهِ، وَذَلِكَ أول دَلِيل دلّ على وفور فَضله، وَتقدم قدمه، وتفرده عَن أهل زَمَانه، بِملك رِقَاب القوافي، ورق الْمعَانِي، فالكامل من عدت سقطاته، والسعيد من حسبت هفواته، وَمَا زَالَت الْأَمْلَاك تهجي وتمدح"(١)

---

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ١/١٣٩، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

وكعادة الناس في كل زمان ومكان، ترى للنابه منهم محبا وكارها، فكان أدب أبي الطيب بين طائفتين؛ أهل محبته؛ وعين المحب ــ كما يقولون ــ عمياء، فهي عن كل عيب كليلة، فلم يروا فيه إلا الجيد، وتأولوا خطأه حتى ولو كان ظاهرا، وأهل بغضه؛ إذ جعلوا من شعره هدفا، فلم يُظهروا إلا القبيح منه، حتى ولو بلغ في الحسن الغاية، وأخرى تجردوا من الهوى؛ فأخرجوا ما فيه، غثه وثمينه، وفي هذا يقول القاضي الجرجاني:" وما زلتُ أرى أهل الأدب – منذ ألحقتني الرغبةُ بجملتهم، ووصلَت العنايةُ بيني وبينهم – في أبي الطيب أحمد بنِ الحسين المتنبي فئتين: من مُطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، منحطّ في هواه بلسانه وقلبه، يتلقّي مناقِبَه إذا ذُكِرت بالتعظيم، ويُشيع محاسنه إذا حُكيت بالتفخيم، ويُعجَب ويعيد ويكرر، ويميل على من عابه بالزِّراية والتقصير، ويتناول من ينقصُه بالاستحقار والتجهيل؛ فإن عثَر على بيت مختلّ النظام، أو نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نُصرة خطئه، وتحسين زلَله ما يُزيله عن موقف المعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر. وعائبٍ يروم إزالتَه عن رُتبته، فلم يسلّم له فضله، ويحاول حطّه عن منزلةٍ بوّأه إياها أدبُه؛ فهو يجتهدُ في إخفاء فضائله، وإظهار مَعايبه، وتتبع سقطاتِه، وإذاعة غَفلاته."(١)

والحقيقة أن شعر أبي الطيب من الأشعار التي قد تخفى أسرارها، حتى على أكابر العلماء المنصفين؛ فقد يذم أحدهم بيتا له، وإن فتشت وجدت الأمر على خلاف ماقال، وهذا لا يوجد إلا في شعر الفحول، قال الواحدي في شرحه ديوان أبي الطيب:" ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره، من أكابر الفضلاء، والأئمة العلماء، حتى الفحول منهم والنجباء؛ كالقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ صاحب كتاب "الوساطة" وأبي الفتح عثمان بن جنى النحوي، وأبي العلاء المعري، وأبي علي بن فورجة البروجردي، رحمهم الله تعالى، وهؤلاء كانوا

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣،٤تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

من فحول العلماء، وتكلموا في معاني شعره مما اخترعه وانفرد بالإغراب فيه وأبدعه، وأصابوا في كثير من ذلك، وخفى عليهم بعضه ،فلم يكن لهم غرضه المقصود لبعد مرماه وامتداد مداه."(١)

ومن هؤلاء العلماء الذين تعرضوا لشعر أبي الطيب بالدراسة والنقد ضياء الدين بن الأثير؛ حيث قال:" ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وأنفذت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده،... وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس، وأبي عبادة بن الوليد "البحتري"، وأبي الطيب المتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين. إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء."(٢)

ولما كان البحث خاصا بمآخذه على المتنبي آثرت أن أذكر من كلام ابن الأثير ما يخص شعر أبي الطيب؛ فإذا كان شعره قد بلغ الغاية، فإن قدمه زلت في بعض المواضع، يقول ابن الأثير: " ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساما خمسة، خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر، وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها، وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها، فإنها التي ألبسته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام."(٣)

---

(١) شرح ديوان المتنبي للواحدي ٣/١، الناشر: دار صادر بيروت.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر٢٢٧/٣،المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ــ القاهرة.

(٣) السابق.

ذكر ابن الأثير أنه نظر في شعر المتنبي بعين بعيدة عن الهوى، فوجد من شعره ما بلغ فيه الغاية، ومنه ما عدمه خير من وجوده، فكان سببا في ملامه، وجعلت منه غرضا لسهام الطاعنين، وهو محل الدراسة من هذا البحث؛ حيث قصد البحث تلك الأبيات التي أخذها ابن الأثير على أبي الطيب؛ لمناقشته فيما قال وفق المنهج العلمي.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ثم عرض للمواضع التي أخذها ابن الأثير على المتنبي، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، ففي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع وخطته، وفي التمهيد عرّفت بالمتنبي وابن الأثير، وفي الخاتمة ذكرتُ أهمَّ ما وصل إليه البحث، وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن أذكر الشاهد ورأي ابن الأثير فيه، ثم مناقشته في ضوء ما قاله أهل العلم؛ ما بين مؤيد أو مخالف، ثم أذكر الرأي الأقرب للصواب؛ مما يتفق والغرض المسوق له الكلام.

وبعد فإن وجد القاريء خيرا فلله المنة والفضل، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت،و أسأل الله أن يعصمني من الزلل، وصلى الله وسلم على النبي الأكرم، وعلى آله الأطهار،وصحبه الأخيار، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد

يتناول مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالمتنبي.

اسمه ومولده:

أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، ولد بالكوفة، سنة ثلاث وثلثمائة٣٠٣ه .(١)

نشأته وحياته:

نشأ بالشام، وأقام بالبادية، وطلب الأدب وعلم العربية، ونظر في أيام الناس، وتعاطى قول الشعر في حداثته، حتى بلغ فيه الغاية، وأنهي فيه النهاية، وفاق فيه أهل عصره، وبلغ خبره الأمير سيف الدولة أبا الحسن علي بن حمدان، وأكثر القول في مديحه، ثم مضى إلى مصر، ومدح بها كافوراً الإخشيدي. وطلب منه أن يوليه، فلم يوله، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه."(٢)

زار بلاد فارس فمر بأرجان(٣) ومدح فيها ابن العميد، وكانت له معه

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/١٢٠، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الأعلام١/١١٥، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء٢١٩، المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، الأعلام ١١٦

(٣) أَرَّجَانُ: بفتح أوله وتشديد الراء، وجيم وألف ونون، وعامّة العجم يسمّونها أرغان، وقد خفّف المتنبي الراء فقال:

أرجان أيّتها الجياد، فإنه ... عزمي الذي يدع الوشيج مكسّرا

- مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثيرة وزيتون وفواكه، وهي بريّة بحرية، سهليّة جبليّة، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخا، وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخا، ينسب إليها كثير من أهل العلم. ينظر: معجم البلدان ١/١٤٤، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

مساجلات، ورحل إلى شيراز[١] فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلميّ، وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضا، فاقتتل الفريقان، فقُتل أبو الطيب وابنه مُحسد وغلامه مفلح بالنعمانيّة[٢]، في شعبان لثمان خلون منه سنة ٣٥٤ هـ، بالقرب من دير العاقول[٣] في الجانب الغربي من سواد بغداد."[٤]

شعره:

مما لا شك فيه أن شعر أبي الطيب من مفاخر الأدب العربيّ، له فيه الأمثال السائرة، والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة، وقد ذاع صيته، وانتشر خبره، مما لا يحتاج المتكلم الاستدلال عليه، وما أذكره من أقوال أهل العلم إنما هو من باب الاستئناس؛ فهو الشمس الذي لا يحتاج ظهورها إلى دليل، قال عنه أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ):"نادرة الْفلك، وواسطة عقد الدَّهْر فِي صناعَة الشّعْر، ثمَّ

---

(١) شِيرازُ: بالكسر، وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث، وهي مما استجدّ عمارتها واختطاطها في الإسلام، قيل: أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عمّ الحجّاج، وقيل: شبهت بجوف الأسد لأنّه لا يحمل منها شيء إلى جهة من الجهات ويحمل إليها ولذلك سمّيت شيراز، وبها جماعة من التابعين مدفونون. معجم البلدان ٣/١٨٠وما بعدها

(٢) النُّعْمَانِيّةُ: بالضم، كأنها منسوبة إلى رجل اسمه النعمان: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفّة دجلة معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته وأهلها شيعة غالية كلهم، وقد نسب إليها قوم من أهل الأدب. السابق ٥/٢٩٤

(٣) دَيْرُ العَاقُولِ: بين مدائن كسرى والنّعمانية، بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخا على شاطئ دجلة كان، فأمّا الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل، وكان عنده بلد عامر وأسواق أيام كان النهروان عامرا، فأمّا الآن فهو بمفرده في وسط البريّة وبالقرب منه دير قنّى، وينسب إلى دير العاقول جماعة من العلماء. السابق ٢/٥٢١

(٤) ينظر: وفيات الأعيان ١/١٢٤، الأعلام ١/١١٦

هُوَ شَاعِر سيف الدولة، الْمَنْسُوب إِلَيْهِ، الْمَشْهُور بِهِ، إِذْ هُوَ الَّذِي جذب بضبعه[١]، وَرفع من قدره، ونفق سعر شعره، وَألْقى عَلَيْهِ شُعَاع سعادته، حَتَّى سَار ذكره مسير الشَّمْس وَالْقَمَر، وسافر كَلَامه فِي البدو والحضر، وكادت اللَّيَالِي تنشده، وَالْأَيَّام تحفظه كَمَا قَالَ وَأحسن مَا شَاءَ."[٢]

وَمَا الدَّهْر إِلَّا من رُوَاة قصائدي ... إِذا قلت شعرًا أصبح الدَّهْر منشدا

فَسَار بِهِ من لَا يسير مشمرا ... وغنَّى بِهِ من لَا يُغنِّي مغردا

فشعره صار به الركبان، حتى شُغل الناس بشعره عن سائر الأشعار، يقول الواحدي:" إن الناس منذ عصر قديم قد ولوا جميع الاشعار صفحة الإعراض؛ مقتصرين منها على شعر أبي الطيب المتنبي، نائين عما يروى لسواه، وإن فاته وجاز في الإحسان مداه؛ وليس ذلك إلا لبختٍ اتفق له فعلا فبلغ المدى، وقد قال هو:

هو الجدُّ حتى تفضل العين أُختها ... وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

على أنه كان صاحب معان مخترعة بديعة، ولطائف أبكارٍ منها لم يسبق إليها دقيقة، ولقد صدق من قال: "[٣]

مَا رَأى النَّاسُ ثانيَ المُتنبيّ ... أَيُّ ثَانٍ يُرَى لبكْر الزّمانِ

هُوَ فِي شِعرهِ نَبيٌّ ولكنْ ... ظَهرتْ مُعجزاتهُ فِي الْمعَانِي

---

(١) أخذت بضَبْعه، أي بوَسَط عَضُده وَقيل هُوَ إِذا أدخلتَ يَدك تَحت إِبْطه من خَلْفه واحتَمَلْتَه وَقيل الضَّبْع العَضُد، والمعنى تمكنه منه، ينظر: المخصص: عضد، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م

(٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ١/١٣٩ .

(٣) شرح ديوان المتنبي للواحدي ١/٣، الناشر: دار صادر بيروت.

المطلب الثاني: التعريف بابن الأثير. [1]

اسمه:

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين. [2]

مولده ونشأنه :

ولد في شهر شعبان في جزيرة ابن عمر[3] سنة ٥٥٨هـ، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه؛ المؤرخ عز الدين أبو الحسن عليّ، والمحدث مجد الدين المبارك، وانتقل مَعَ وَالِده إِلَى الموصل، واشتغل وَحصل الْعُلُوم، وَحفظ الْقُرْآن، وشيئاً من الحَدِيث، وطرفاً من النَّحْو واللغة وَعلم الْمعَانِي والبيان ، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وولي الوزارة للملك الأفضل ابن صلاح الدين في دمشق، ولم تحمد سياسته، فخرج منها مستخفيا في صندوق مقفل. ثم انتقل إلى خدمة الملك الظاهر غازي (صاحب حلب) (سنة ٦٠٧ هـ ولم تطل إقامته فيها، وتحول إلى الموصل، فكتب الإنشاء لصاحبها محمود بن عز الدين مسعود، فبعثه رسولا في أواخر أيامه إلى الخليفة، فمات ببغداد في التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٧هـ. [4]

---

(١) أفدت في التعريف به من بحث لي بعنوان: "استدراكات ضياء الدين بن الأثير على ابن سنان الخفاجي جمعا ودراسة"ص٦٩٤٥وما بعدها؛ بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بجرجا، العدد الثاني والعشرون ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م.

٢)) الأعلام ٤٣١/٤.

٣)) جَزِيرَةُ ابْنِ عُمَرَ: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها نخل واسع الخيرات، أوّل من عمّرها الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي، وينسب إليها جماعة من العلماء، منهم بنو الأثير العلماء الأدباء وهم: مجد الدين المبارك وضياء الدين نصر الله وعز الدين أبو الحسن عليّ بنو محمد بن عبد الكريم الجزري، كلّ منهم إمام.ينظر: معجم البلدان ١٣٧/٢.

٤)) ينظر : الوافي بالوفيات ٢٧/ ٢٤، الأعلام ٨/ ٣٠، ٣١، معجم المؤلفين ٩٨/١٣

مؤلفاته :

كان ــ رحمه الله ــ قويّ الحافظة، قال عنه ابن خلكان:" حفظ كتاب الله الكريم، وكثيراً من الأحاديث النبوية، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان، وشيئاً كثيراً من الأشعار، حتى قال في أول كتابه الذي سماه " الوشي المرقوم " ما مثاله: " وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثيرة، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين: حبيب بن أوس، يعني أبا تمام، وأبي عبادة البحتري، وشعر أبي الطيب المتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين، حتى تمكنت من صوغ المعاني، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً "[١]

ومن تآليفه " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " و" غرّة الصَّباح فِي أَوْصَاف الاصطباح "، و" " كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب " ، و " الْأَنْوَار فِي مدح الْفَوَاكِه وَالثِّمَار" و " المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء" و " الوشي المرقوم في حل المنظوم " و " الجامع الكبير "" في صناعة المنظوم والمنثور"، و " البرهان في علم البيان – خ "، وَله غير ذَلِك، ونظمه قَلِيل جدّاً .[٢]

---

١)) وفيات الأعيان ٣٧١/٥

٢)) ينظر : الوافي بالوفيات ٢٧/ ٢٤، الأعلام ٣١

المآخذ

في الصفحات القادمة أبدأ ــ إن شاء الله تعالى ــ بذكر المآخذ التي استدركها ابن الأثير على المتنبي، ثم أدرسها دراسة بلاغية في ضوء ما قاله أهل العلم؛ بين مؤيد ومخالف؛ حتى أصل إلى القول الصحيح، الذي يتفق والغرض المسوق له الكلام.

المأخذ الأول: الألفاظ المبتذلة.

تقديم :

من المعلوم أن اللفظة المفردة هي اللبنة الأولى في بناء الجملة، ووجب أن تخلو المفردة من كل عيب يخل بفصاحتها؛ ومن الأمور التي يجب على المتكلم مراعاتها أن يتجنب الألفاظ السوقية المبتذلة، فالشعر له لغته الخاصة، وقد ذكر ابن رشيق أن الشاعر وجب عليه " أن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية."(١)

وابن سنان في حديثه عن شروط فصاحة اللفظ ذكر منها:" أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية"(٢)

وقد سلك ابن الأثير هذا المسلك في غير موضع من كتابه؛ ففي حديثه عن فصاحة اللفظة تحدث عن الألفاظ السوقية المبتذلة، وتعرض في غير موضع لشواهد من شعر المتنبي تحمل شيئا من هذه الألفاظ، على حد كلامه، وفيما يلي أذكر تلك الألفاظ التي أخذها ابن الأثير على أبي الطيب، ومناقشته في ضوء كلام أهل العلم؛ ليتبيّن لنا هل استدراكه في موضعه ؟ أم أن في المسألة أمرا آخر.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٢٨/٢،المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل .

(٢) سر الفصاحة ٧٣، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م

الموضع الأول : كلمة" اللقالق "

في حديث ابن الأثير عن الألفاظ التي يجب أن يخلو منها الشعر، قال:" المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة، سواء تداولتها العامَّة أو الخاصة. فمما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي:

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ ربعيةٌ... يصِيحُ الحَصَا فيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِقِ(١)

فإن لفظة "اللقالق" مبتذلة بين العامة جدًّا."(٢)

كلام ابن الأثير بيّنٌ في أن كلمة " اللقالق " سخيفة مبتذلة جدا. ولم يبيّن الرجل لِمَ كانت تلك الكلمة وغيرها مبتذلة؟ أو بعبارة أخرى ما المعيار الذي يدخل الكلمة حيزّ الابتذال؛ حتى يكون الحكم مشفوعا بما يبيّنه؟

وبالنظر في كتب أهل العلم نجد ابن الأثير قد سُبِقَ إلى هذا المأخذ؛ فأول من قال به الحاتمي، (المتوفى: ٣٨٨هـ)؛ ففي حديثه عن التشبيه القبيح تعرض لبيت أبي الطيب وقال:" ومن قبيح التشبيه" وذكر البيت (٣)

يُفهم من كلام الحاتمي أن قبح التشبيه سببه تلك اللفظة؛ إذ ليس في البيت شيء يدعو إلى القول بقبح التشبيه إلا أن المشبه به صياح اللقالق .

---

(١) ملمومة: أي: كتيبة قد لمّ بعضها إلى بعض، وسيفية: نسبها إلى سيف الدولة، وربعية منسوبة إلى ربيعة الفرس، وسيف الدولة من تغلب ابنة وائلٍ، وهي ترجع إلى ربيعة. واللقالق: جمع لقلق، وهو طائر. وقيل: إنه الذي يقال له: أبو حديجٍ. واللقلقة: كل صوتٍ رفع. ينظر: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي ٨٠٣، المحقق: محمد سعيد المولوي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

(٢) المثل السائر ١٩٩

(٣) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي و ساقط شعره ١١/١

وفي ركب ابن الأثير سار غيرُ واحد من أهل العلم؛ منهم بهاء الدين السبكي؛ ففي حديثه عن شروط فصاحة المفرد قال:" ومنها: أن لا تكون الكلمة مبتذلة، إما لتغيير العامة لها إلى غير أصل الواضع كاللقالق"(١)

كلام السبكي فيه زيادة؛ أن الكلمة محل الشاهد قد غيّرتها العامة عن أصل وضعها، ولا أدري أي تغير قد طرأ على الكلمة من استعمال العامة لها، فغيرها عن أصل وضعها الذي وضِعت عليه ؟ وهل كان لكلمة " اللقالق " معنى ثم تغير إلى ما عليها الآن ؟ وبالبحث في معاجم اللغة لا أجد للكلمة معنى كانت عليه في أصل اللغة ثم تطور إلى ما عليه الآن .

أم هل يقصد السبكي أن الكلمة الفصيحة إذا طالتها يد العامة، وجرت على ألسنتهم يخرجها عن الفصاحة إلى الابتذال؟، ولو سلمنا له بهذا؛ من أن القدح في الكلمة من أجل استعمال العامة لها، فهل أبو الطيب المتنبي من العامة ؟! إن الكلام برمته لا ينهض حجة لما قال .

وعلى نهجهما جاء كلام الشيخ الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ؛ ففي حديثه عن سلامة الكلمة من الابتذال، ذكر أن الابتذال يقع على وجوه منها :" أن تكون الكلمة من موضوعات العامة المفقودة أو المَنْسِيَّة في فصيح الكلام، مثل (الخازَ بازَ) لذباب الرِّيَاض، ومثل (اللَّقالِق) جمع لَقْلَق، وهو طائرٌ له مِنْقَارٌ طويل دقيقٌ، ورِجْلاه طويلتان."(٢)، وذكر في موضع آخر أن بها كراهة في السمع(٣) .

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٧٠/١

(٢) أصول الإنشاء والخطابة ٩٥،المحقق: ياسر بن حامد المطيري، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ

(٣) جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ١٥٠٣/٣جمعها وقرأها ووثقها: محمد الطاهر الميساوي الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م

كلام الشيخ ابن عاشور يتجه بالكلمة نحو أمر آخر؛ هو أن سبب ابتذال تلك الكلمة أو غيرها يرجع إلى أن اللفظة من موضوعات العامة المفقودة التي سارت غير جارية على اللسان، أو كانت من الفصيح لكن طالته يد النسيان .

أقول: هل في إحياء الكلمة الفصيحة من مرقدها ما يتعارض مع فصاحتها؟ وما المشكلة في استعمالها مادامت سهلة على اللسان، ولا غضاضة في سماعها ؟ وأي كراهة في السمع تلك التي يتحدث عنها؟

هذا وإذا كان الحاتمي ومن سلك مسلكه يذمون تلك الكلمة، ويعيبون المتنبي بسببها، فإن فريقا من أهل العلم لهم في المسألة قول آخر .

أبو العلاء المعري واحد من هؤلاء الذين تعرضوا لبيت أبي الطيب بالشرح، دون أن يتوجه إليه بذم أو مدح، وليس سكوته عن مدحه يعني أن به ما يقدح فيه؛ فليس من طبع أبي العلاء أن يسكت عن عيب في كلام دون أن يشير إليه؛ حيث يقول :"إن هذه الملمومة إذا سارت في الحصى حكى وقع حوافرها فيه، صوت اللقالق. وقيل: معناه أنها قد لبست التجافيف[١] والدروع، وإذا وقعت حصاة عليهم طنت في الحديد والدروع، فأشبهت صياح اللقالق. "[٢]

شيخ المعرة يقصد بيان التشبيه الذي جاء في البيت؛ وهو تشبيه حوافر الخيل عند احتكاكها بالحصى بصوت اللقالق، وهو وإن لم يُظْهِر استحسانا فلم يذكر قبحا في التشبيه، ولو كان من مذهب أبي العلاء قبح التشبيه، أو ذم اللفظة لصرح بذلك .

وإذا كان التشبيه خاليا من الذم عند أبي العلاء، وهو ما يفهم ضمنا من كلامه، فإن أبا البقاء العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ قد استحسن التشبيه الوارد في البيت صراحة؛ فقال: "شبه صَوت حوافر الْخَيل والحصى بِصَوْت اللقالق وَهُوَ تَشْبِيه حسن"[٣]

---

(١) التِّجْفَافُ بالكَسْرِ: آلَةٌ لِلْحَرْبِ مِن حَدِيد وغَيْرِه، يُلْبَسُهُ الْفَرَسُ، قد يَلْبَسُهُ الإِنْسَانُ أَيضاً؛ لِيَقِيَهُ فِي الْحَرْبِ، وَالْجمع التَجَافِيفُ تاج العروس من جواهر القاموس ج ف ف المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية.

(٢) معجز أحمد ٣٣١

(٣) شرح ديوان المتنبي ٣٢٥/٢

التشبيه حسن عنده، ولو كانت الكلمة مبتذلة ــ كما ذهب الأولون ــ لم يكن لحسن التشبيه وجه عنده.

من خلال ما سبق يتبين أن كلمة " اللقالق " التي جعلها ابن الأثير ومن سلك مسلكه سخيفة مبتذلة عامية، وكانت سببا في قبح التشبيه، هي بعينها سبب في حسن التشبيه عند آخرين .

أقول: إن أبا الطيب أراد أن يشبه الصوت الذي يصدر من احتكاك حوافر الخيل بالحصى بصوت اللقالق، وهو تشبيه حسن وقع موقعه، فهو تصوير رائع للمشهد الذي يتحدث عنه؛ فالتشبيه بصوت اللقالق يفيد أمرين؛ علو الصوت وكثرته من جهة، واضطراب الحركة من جهة أخرى ، فالخيول تتحرك وتنتشر في كل مكان، على أثر تلك الحركة ينشأ الصوت الذي يشبه اللقلقة، وهذا من طبيعة هذا الطائر وصوته، يقول الجوهري (المتوفى: ٣٩٣هـ):" واللقلان: طائر أعجمي طويل العنق يأكل الحيات. وربَّما قالوا اللَقْلَقُ، والجمع اللَقالِقُ، وصوته اللَقْلَقَةُ، وكذلك كلُّ صوت في حركةٍ واضطراب. وفي حديث عمر رضي الله عنه: " ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ "، قال أبو عبيد: اللَقْلَقَةُ: شدَّة الصوت."(١)

ثم ما الفرق بين كلمة " اللقلقة " و " اللقالق "؟ وقد جاءت الأولى على لسان عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عند موت خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ وقد رأى بكاء النساء عليه؛ جاء في

البخاري: وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « دَعْهُنَّ يَبْكِينَ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ مَا لَمْ يَكُنْ نَقْعٌ أَوْ لَقْلَقَةٌ » وَالنَّقْعُ: التُّرَابُ عَلَى الرَّأْسِ، وَاللَّقْلَقَةُ: الصَّوْتُ"(٢) ، والكلام كان عند موت أبي سليمان خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ ، والمعنى : دعهن يبكين

---

(١) الصحاح: لفق، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

(٢) الجامع المسند الصحيح، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ النِّيَاحَةِ عَلَى المَيِّتِ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

ما لم يرفعن أصواتهن ، أو يضعن التراب فوق رؤسهن، فلو كانت كلمة " اللقالق " مبتذلة في البيت، لكانت كلمة " اللقلقة " على شاكلتها في الحديث !

إن تمام القول أن تؤدي الكلمة دورها على الوجه الأكمل في بناء التشبيه، و الشيخ عبد القاهر في حديثه عن التشبيه الذي لا يحتاج إلى تأوّل جعل منه:" كل تشبيهٍ جَمَعَ بين شيئين فيما يدخل تحت الحواسّ، نحو تشبيهك صوتَ بعض الأشياء بصوت غيره، كتشبيه أطيطِ الرحل بأصوات الفراريج، كما قال:

كأنّ أصواتَ، من إيغالهنّ بنا ... أواخرِ الميْس إنقاضُ الفَرَاريج

تقدير البيت كأن أصوات أواخر الميس أصواتَ الفراريج من إيغالهن بنا ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله: من إيغالهن وكتشبيه صَرِيف أنياب البعير بصياح البوازي، كما قال:

كأنَّ عَلَى أنيابها كُلَّ سُحْرَةٍ ... صِياحَ البَوازي من صَرِيف اللَّوَائِك

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له:"[١]

فلو كان تشبيه احتكاك حوافر الخيل بالحصى بصياح اللقالق مبتذلا؛ على اعتبار أن كلمة اللقالق مبتذلة سوقية، لكان تشبيه صوت الرحل بأصوات الفراريج، وتشبيه صَرِيف أنياب البعير بصياح البوازي مبنذلا وقبيحا؛ و يلزم عليه جعل كلمة "الفَرَاريج "، وكلمة "البَوازي" مبتذلة سوقية، ولا يعقل أن الشيخ عبد القاهر يستشهد بألفاظ مبتذلة، بل ومما يجعل النفس مطمئنة إلى هذا أن الشيخ قال بعدها:" وأشباه ذلك من الأصوات" فهو يفتح لك الباب لكل تشبيه سلك هذا المسلك ...

أقول: لو كانت كلمة اللقالق مبتذلة كما قال ابن الأثير، فقد ورد لفظ:" العنكبوت، والبقرة ، والحمار، والنمل ، وقسورة...وغيرها في الذكر الحكيم وهي غاية في الفصاحة في مقامها الذي وردت فيه. إن تمام الأمر و المعول عليه في ذلك أن نقول: هل اللفظة قلقلة في موضعها أم لا؟ .

---

(١) أسرار البلاغة ٩٠، ٩١، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .

وقد قال الدكتور إحسان عباس:" ابن الأثير ذو حساسية تبلغ حد المرض نحو طبيعة اللفظة نفسها كان حضري المزاج يكره وحشي الألفاظ وشظف العبارات، وكان " متنوفاً " في هذا الذوق، شديد الوسواس إذا أحس بان اللفظة ذات إيحاءات رديئة من ناحية الدلالة على العورات، أو بأنها مبتذلة بين العامة، ولا يخلو هذا الموقف من بعض الاضطراب، فإن الذي يفتش عن المعنى بهذا القدر من الجهد لابد من أن يتسامح قليلاً في ناحية اللفظ.."(١)

ويعجبني ما ختم به الدكتور إحسان حديثه" إن الذي يفتش عن المعنى بهذا القدر من الجهد لابد من أن يتسامح قليلاً في ناحية اللفظ"، وأزيد على ذلك بأن المعول عليه في ذلك هو السياق، فما دامت اللفظة وقعت موقعها اللائق ، وأدت المراد منها على خير وجه ، وكان مثلها جار على ألسنة الفصحاء فَلِمَ لا تستعمل ؟

الموضع الثاني: كلمة "الصرم "

مرة أخرى يأخذ ابن الأثير على المتنبي لفظة مبتذلة على حد قوله؛ وذلك في سياق حديثه عن الألفاظ المبتذلة، فجعل منها ما كان دالّا على معنى وضع له في أصل اللغة، فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر مبتذل، ونقل العامة للفظ من أصل وضعه إلى معنى جديد، إما يكون حسنا لا مشكلة فيه، وإما إن يكون قبيحا مستكرها، ومن هذا النوع المبتذل المستكره لفظة " الصُرم "في قول أبي الطيب:

أذاق الغواني حسنه ما أذقنني ... وعفَّ فجازاهنَّ عني بالصرم(٢)

فلفظ "الصرم " عند ابن الأثير من الألفاظ المبتذلة التي يكره ذكرها؛ حيث يقول :" فإن لفظة "الصرم" في وضع اللغة هو القطع، يقال: صرمه إذا قطعه،

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٠٥/١

(٢) يقول الواحدي: الغواني النساء الشواب يقال إنهن اللاتي غنين بجمالهن عن الحلى، ويقال غنين بأزواجهن عن الرجال، ويقال الغانية التي غنيت بيت أبويها ولم يقع عليها سباء، يقول فعل بهن ما فعلن بي؛ لأنهن عشقنه فلم يواصلهن وعف عنهن فكان ذلك جزاء لهن عن مصارمتهن إياي . شرح ديوان المتنبي ٦٨/١

فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره، فأبدلوا السين صادا، ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة، وما جرى مجراها"(١)

مفاد كلام الرجل أن كلمة " الصرم " في بيت المتنبي مبتذلة ومستكرهة؛ لأن العامة قد غيرتها عن أصل وضعها في اللغة، فدلالة الكلمة في الأصل على معنى القطع، غير أن العامة أخذتها من هذا المعنى الذي لا غضاضة فيه إلى معنى مستقبح؛ بمعنى" الدبر " ، وأصل هذا المعنى ــ الدبر ــ كان بالسين " السرم " ثم استعمل بالصاد؛ جاء في اللسان:" السُّرْمُ مَخْرَجُ الثُّفْل وَهُوَ طرَف المِعى الْمُسْتَقِيمِ، كَلِمَةٌ مولَّدة... السُرْمُ: الدُبرُ"(٢) ، فهذا معنى مستكره، وقد عدلت به العامة من الصرم بمعنى القطع إلى الصرم بمعنى مخرج الدبر ــ أكرمك الله ــ والذي كان بالسين .

عرض ونقد :

المشكلة محل الخلاف في استعمال المتنبي كلمة كانت في أصل وضعها لا غضاضة فيها، ثم نقلتها العامة إلى معنى جديد مستكره مبتذل؛ أدى إلى قبح الكلمة في كل موضع وقعت فيه، فعلى هذا يكون المتنبي قد جانبه الصواب عندما سلك هذا المسلك، وكان يجب عليه أن يبتعد عن تلك الألفاظ التي قبحت باستعمال العامة لها.

وابن الأثير ليس بدعا في هذا الجانب؛ وأعني به قبح استعمال الكلمة التي غيرتها العامة عن أصل وضعها إلى معنى مستقبح؛ فقد ذكر ابن سنان في حديثه عن فصاحة الألفاظ:" ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت"(٣)، و قد ذكر الكلمة نفسها في قول أبي صخر الهذلي:

---

(١) المثل السائر ١٨٣/١

(٢) لسان العرب: سرم

(٣) سر الفصاحة ٨٥

قد كان صرم في الممات لنا ... فعجلت قبل الموت بالصرم

ثم علق قائلا: "وإنما أنكرت هذا لموافقته إيراد العامة هذه اللفظة على هذه الصيغة بالصاد فيما هي بالسين فكان إيثاري تجنبها لذلك."[١]

وعلى نهجهما جاء قول القلقشندي في حديثه عن الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه" وعيب على أبي الطيب استعماله ." [٢] وذكر البيت محل الدراسة .

هذا وقد التمس السابقون عذرا لأبي صخر في استعمال كلمة " الصرم "، ولم يلتمسوا ذلك لأبي الطيب؛ وعلة ذلك عندهم أن استعمال الهذلي كان قبل نقل العامة لها من أصل معناها وهو القطع إلى المعنى الجديد المستقبح؛ يقول القلقشندي:" ولم يعب عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا، واستعملت لفظ الصّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطّيّب استعماله."[٣]

أقول: أتفق مع ابن الأثير ومن سلك هذا المسلك؛ في أن الكلمة قد تعاب في استعمال وتمدح في آخر، فاللغة كائن حي؛ يطرأ عليها ما يطرأ على الأحياء، وتتطور اللغة بتطور الزمان والثقافات، ومن يتبع دلالات الألفاظ في العصور المختلفة يجد ما يؤكد ذلك؛ مثلا كلمة "العرص " من الكلمات المستقبحة في زماننا، وقد كانت من الفصيح المستعمل؛ يقول الخليل:" العَرْص: خشبة توضع على البيت عُرضاً إذا أراد تسقيفه ثم يوضع عليه أطراف الخشب الصّغار. وعَرَّصت السقف تعريصاً. والعرّاص من السّحاب ما أطلّ من فوق، فقرب حتى صار كالسقف، ولا يكون إلاّ رعد وبرق. قال ذو الرّمة :

---

(١) سر الفصاحة ٨٦

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء٢/٢٧٤

(٣) السابق .

يَرْقَدُّ فِي ظِلِّ عَرَّاصٍ، ويَطْرده ... حَفِيفُ نافِجَةٍ، عُثْنُونُها حَصِبُ[١]

والمُعَرَّص من اللّحم ما ينضج على أيّ لون كان في قدر أو غيره. يقال: المعرَّص الذي تعرَّصه على الجمر فيختلط بالرماد فلا يجود نضجه."[٢]

فكلمة " العرص " و " المعرّص " ــ كما ترى ــ كانت سائغة متداولة ، ولا غضاضة في استعمالها، فنقلت إلى معنى جديد مستقبح؛ وهو الديوث الذي يقر الخبث في أهله، ولا يرضى بقولها إلا أسافل الناس، فلا ترى لها ذكرا بين أهل العلم، ولا استعمالا في مقام أدب، ولولا أن الباحث أراد الاستشهاد على صحة ما يقول ما كان ليذكرها.

وإن شئت مزيدا حتى يطمئن القلب إلى صحة ما ذهب إليه ابن الأثير، أنك تجد في الحديث النبوي ألفاظا مستعملة، ولكن بمرور الزمن عليها تُرك استعمالها؛ نحو كلمة " أَنِكْتَهَا" في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ» قَالَ: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَنِكْتَهَا» . لاَ يَكْنِي، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ"[٣]،وتأمل كلمة " لاَ يَكْنِي" ودلالتها على تصريح النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالكلمة محل الشاهد دون الكناية عنها؛ لأن المقام مقام إقامة حد، فلا يصح فيه الكناية، وعلى كل الكلمة لا غضاضة في استعمالها وقتها، وإلا عدل عنها رسول الله ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ إلى غيرها، فهذه لفظة كانت مستعملة، فأين هي الآن الاستعمال ؟

إن ما ذهب إليه ابن الأثير ومن نهج هذا النهج في أخذه على المتنبي كلمة نقلتها العامة من أصل وضعها إلى معنى جديد مستقبح في محله، وله من الشواهد ما يؤكده، ولو عدل المتنبي عن تلك إلى غيرها مما يؤدي معناها كان أولى ، وسلم كلامه من النقد

---

(١) يرقَدّ: يُسْرِع في عَدْوه. وعُثْنونُها: أوّلُها. وحَصِبٌ: يأْتي بالحَصْباء. وعَرِصَ البَرْقُ عَرَصاً واعْتَرَصَ: اضْطَرَبَ. وبَرْقٌ عَرِصٌ وعرّاصٌ: شَدِيدُ الِاضْطِرَابِ والرعدِ والبرق. اللسان : عرص.

(٢) العين :عرص.

(٣) الجامع المسند الصحيح، باب: هَلْ يَقُولُ الإِمَامُ لِلْمُقِرِّ: لَعَلَّكَ لَمَسْتَ أَوْ غَمَزْتَ.

المأخذ الثاني: الكلمة الغريبة

من المعلوم أن الغرابة وصف في الكلمة يخرجها عن حيز الفصاحة؛ بسبب بعدها عن المستعمل المألوف، وفي حديث ابن الأثير عن عيوب الألفاظ ذكر منها هذا العيب، و الغريب عنده نوعان : غريب مستعمل يقبله الذوق، ويقتضيه المقام، ولا يقوم غيرُه من الألفاظ مقامه في سياقه الذي ورد فيه، فغرابته في مقامه هي سر بلاغته، من ذلك غريب القرآن والحديث الشريف، والآخر ما كان وحشيا مهجورا لايقبله الذوق، ويمجه الطبع، ويصعب النطق به، وذلك غاية القبح عنده، يقول ابن الأثير:" وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته، وهو الذي يسمى "الوحشي الغليظ"، ويسمَّى أيضًا "المتوعِّر"، وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفنِّ أصلًا."(١)، ثم ساق الرجل شواهد لهذا النوع من الغريب المخل بالفصاحة، فذكر بيتا لتأبط شرا، وآخر لأبي تمام، ثم تعرض للفظة من هذا النوع وردت في بيت للمتنبي؛ وهي كلمة " جَفَخَت " في قوله :

جَفَخَتْ وَهُم لا يَجفَخونَ بِها بِهِم ... شِيَمٌ عَلى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ(٢)

فكلمة " جَفَخَت" كما ترى كلمة غريبة، ثقيلة على اللسان، ولا يقبلها الذوق، وكان بإمكانه أن يأتي بلفظة أخرى من فصيح الكلام تؤدي معناها، نحو كلمة "فخرت " ويخرج بالبيت من دائرة النقد، ولم يكن هناك داع لاستعمالها وعدم عدوله عنها، وقد عاب ابن الأثير صنيع المتنبي هذا فقال :" فإن لفظة "جفخ" مرة الطعم، وإذا مرَّت على السمع اقشعرَّ منها، وأبو الطيب في استعمالها كاستعمال تأبَّط شرًّا

---

(١) المثل السائر ٢٣/١

(٢) شرح البيت: يقول العكبري :الجفخ الْفَخر جفخ تكبر وفخر مثل جخف وجمح فَهُوَ جفاخ وحماح وَذُو جفخ والشيم جمع شِيمَة وَهِي الخليقة والعلامة والأغر الْأَبْيَض الْوَاضِح الْمَعْنى هَذَا على التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير تَقْدِيره جفخت بهم شيم وفخرت، وهم لَا يفخرون بهَا، وشيمهم دَلَائِل على حسبهم الظَّاهِر وَهُوَ مَا يعد من مآثر الْآبَاء . شرح ديوان المتنبي ٢٥٨/٣

لفظة "جحيش"[١]، فإن تأبط شرًّا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة، كما أشرنا إليها فيما تقدَّم، وكذلك أبو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي "جفخت"، فإن معناها: فخرت، والجفخ: الفخر، يقال: "جفخ فلان"، إذا فخر، ولو استعمل عوضًا عن "جفخت" "فخرت" لاستقام وزن البيت، وحظي في استعماله بالأحسن."[٢]

وهذا النوع من الغريب ليس هناك ما يدانيه في غرابته وقبحه، على حد تعبير ابن الأثير؛ إذ يقول :" وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء؟!وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الألفاظ هو الوحشيّ اللفظ، الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته، وهذه الأمثلة دليل على ما أوردناه."[٣]

عرض ونقد:

لم يكن ابن الأثير أولَّ من أخذ هذا المأخذ على المتنبي؛ فقد سبق إليه القاضي الجرجاني المتوفى (٣٩٢هـ)؛ ففي "الوساطة" ذكر كثيرا من أبيات المتنبي التي اشتملت على عيوب أخلت بفصاحتها ، ومنها هذا البيت محل الدراسة، ثم علق عليها قائلا:" قلت: قد جمع في هذه الأبيات وفي غيرها مما احتذى به حذوَها بين البرد والغثاثة، وبين الثُقل والوخامة، فأبعد الاستعارة، وعوّص اللفظ، وعقّد الكلام، وأساء الترتيب، وبالغ في التكلّف، وزاد على التعمّق؛ حتى خرج الى السّخف في بعض، والى الإحالة في بعض."[٤]، فالقاضي الجرجاني ــ كما هو معلوم ــ وقف من المتنبي موقفا وسطا بين حساده ومحبيه، فأظهر لحساده مواطن البراعة في كلامه، ولم يمنعه ذلك أن يظهر للمتعصبين له موضع الزلل في شعره، كما قال عن

---

(١) وردت في قول تأبط شرا:

يظل بموْمَاةٍ ويمسي بغيرها ... جحيشًا ويَعْرَوْرِي ظهور المسالك

(٢) المثل السائر ١٨٢/١

(٣) السابق.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٩٢

هذا البيت وأمثاله .فالمتنبي في هذا البيت ــ على حد تعبير الجرجاني ــ جمع بين الثقل والوخامة، وعوّص اللفظ، وعقّد الكلام، وبالغ في التكلف .

ويأتي بعد الجرجاني أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)؛ ففي حديثه عن بعض العيوب التي وردت في شعر أبي الطيب، قال: " وَمِنْهَا إتباع الْفَقْرَة الغراء بِالْكَلِمَةِ العوراء"؛ فذكر أن المتنبي يأتي بأبيات هي آية في البلاغة، فلا يجاريه فيها شاعر، وفجاة يُتْبِع الثريا بالثرى؛ فيذهب حسن كلامه ،ويعقبه مرارة لامساغ لها، إذ يقول:" فَبينا هُوَ يصوغ أَفْخَر حلي، وينظم أحسن عقد، وينسج أنفس وشي، ويختال فِي حديقة ورد، إِذا بِهِ وَقد رمى بِالْبَيْتِ والبيتين فِي إبعاد الِاسْتِعَارَة، أَو تعويص اللَّفْظ، أَو تعقيد الْمَعْنى إِلَى الْمُبَالغَة فِي التَّكَلُّف، وَالزِّيَادَة فِي التعمق وَالْخُرُوج إِلَى الإفراط والإحالة ،والسفسفة والركاكة، والتبرد والتوحش؛ باسْتِعْمَال الْكَلِمَات الشاذة؛ فمحا تِلْكَ المحاسن، وكدر صفاءها، وأعقب حلاوتها مرَارَة لَا مساغ لَهَا، واستهدف لسهام العائبين وتحكك بألسنة الطاعنين."[١]

ثم جاء بشواهد على هذا الجانب منها القصيدة التي منها الشاهد محل الدراسة ؛يقول الثعالبي:" وَقَالَ من قصيدة جمع فِيهَا الشذرة[٢] والبعرة والدرة والآجرة:

لَك يَا منَازِل فِي الْفُؤَاد منَازِل ... أقفرت أَنْت وَهن مِنْك أواهل

وَهَذَا ابْتِدَاء حسن وَمعنى لطيف... ثمَّ اسْتمرّ فِي قصيدته فجَاء بالمتوسط المقارب والبديع النَّادِر والرديء النافر. حتى قال:" ثمَّ قَالَ وتوحش وَتبغض مَا شَاءَ الْحَاسِد".[٣] ثم ذكر البيت محل الدراسة فما ذكره الثعالبي بيّن في أن أبا الطيب جمع في كلامه بين النادر الذي لا نظير له، وبين الغث الذي لا يليق به؛ كما في البيت محل الدراسة.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٨٤

(٢) الشذرة: قطعة من ذهب.مقاييس اللغة : شذر، والمعنى أنه جمع في كلامه بين الغث والثمين .

(٣) ينظر السابق ١٨٨ وما قبلها .

كلام أبي منصور يكتب بذوب التبر؛ حيث نقد كلام المتنبي بأبلغ عبارة وأجمل لفظ، فهو من الأساليب العالية جدا في البيان التي تطرب النفس بسماعه، فهو نقد للكلام ولا أروع، وكلام أبي منصور ومن على شاكلته يجب أن تصرف إليه الهمم بالدراسة.

وعلى نهجهما سار صاحب:" التذكرة الحمدونية"؛ محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون (المتوفى: ٥٦٢هـ)؛ حيث ذكر البيت محل الدراسة تحت عنوان "وممّا استهجن لفظه وبعد عن الاستعمال ومجّته الأسماع قوله..."[١] وأورد عدة أبيات منها هذا الشاهد .

بهذا يتبيّن أن القاضي الجرجاني وأبا منصور الثعالبي وابن حمدون قد سبقوا ابنَ الأثير في هذا المأخذ على المتنبي، وعلى خطاهم مشى ابن الأثير ومن تبعه.

وممن جاء بعد ابن الأثير وسلك هذا المسلك، وأخذ كلامه بفصه ونصه دون زيادة أونقصان؛ العلويُّ صاحب الطراز "(المتوفى: ٧٤٥هـ)؛ إذ يقول:" وهذه اللفظة من مستقبحات الألفاظ ومستهجناتها فما هذا حاله ينبغى تجنبه."، فالعلوي يراها لفظة قبيحة مستهجنة، وما كان هذا حاله من الألفاظ وجب البعد عنه.

وقد نقل القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ) كلام ابن الأثير برمته، ولم يزد عليه شيئا؛ حيث قال :" فإن لفظة جفخ مرّة الطعم، وإذا مرّت على السمع اقشعرّ منها، وكان له مندوحة عن استعمالها، فإن "جفخت" بمعنى فخرت وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فخرت ويفخرون مكان جفخت ويجفخون لاستقام وزن البيت وحظي في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كتأبّط شرّا في لفظة جحيش في توجه الملامة عليه من وجهين."[٢]

---

(١) التذكرة الحمدونية ٣١٦/٧

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢٣٧/٢

وعلى هذا النحو جاء كلام الشيخ يوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)؛"ولفظة الجفخ مرة الطعم إذا مرت على السمع اقشعر منها، ويا لله العجب أليس أنها بمعنى فخرت، وهي لفظة حسنة رائقة، ولو وضعت في هذا البيت موضع جفخت لما اختل شيء من وزنه، فأبو الطيب ملوم من وجهين: أحدهما أنه استعمل القبيح، والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه "[1]

في الحقيقة ما قاله السابقون جاء في محله، فلا تحامل منهم على أبي الطيب، ولا حجة لنا ندفع بها هذا الأمر عنه، فليس للرجل وجه لما أتى به، كيف وقد عدل عن الفصيح المستعمل الذي يؤدي الغرض، ويستقيم به الوزن دون داع، ولو قال : "فخرت " لاستقام الوزن والمعنى ، ونأى بشعره عن هذا العيب.

الدكتور شوقي ضيف له وجهة أخرى :

ذكرت في السطور السابقة أن أهل العلم جميعا قبل ابن الأثير وبعده على ذم هذه اللفظة، ولا وجه عندهم لما قال المتنبي، وهو نقد يقبله الذوق، ولا نستطيع أن نقول عكسه؛ حتى نلتمس للرجل وجها فيما قال .

غير أني وجدت الدكتور شوقي ضيف له في المسألة كلام آخر؛ حيث أراد أن ينتصر للمتنبي، ويبيّن أن استعمال الكلمات الغريبة من مذهب المتنبي، وأن هذا نهج له؛ ليثبت مهارته في استخدام اللغة ،يقول الدكتور ضيف:، "كنا نراه يحاول الإغراب بشعره وأساليبه، وكان يطلب هذا الإغراب ويحققه لنفسه في صور مختلفة من التفلسف والتصوف والتشيع. وأخيرًا في تلك الصور الغريبة من الألفاظ اللغوية النادرة التي يريد أن يروع بها أساتذة اللغة والغريب؛ فإذا هو يأتيهم بمثل "تفاوح" السابقة أو بمثل "جفخت" في قوله:

جَفَخَت وَهُم لا يَجفَخونَ بِها بِهِم ... شِيَمٌ عَلى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٥٦/٢

فقد كان يستطيع أن يضع مكانها فخرت؛ ولكنه كان يريد الإغراب في اللفظ، حتى يثبت مهارته وتفوقه في اللغة. ولعله من أجل ذلك كان يصوغ الأراجيز يحاكي بها رؤبة والعجاج وأبا النجم وأضرابهم، وما يزال يكثر فيها من الغريب كثرة مفرطة. ولم يقف عند هذا الجانب بل طلب الشواذ في الحروف وبناء الأسماء وكأنه لم يترك لغة شاذة في حرف أو اسم إلا جلبها في شعره..."(١)

إن ما قاله الدكتور ضيف هي محاولة يريد بها أن يُخرج كلام المتنبي من حيز العيب، بل جعلها طريقا يثبت به مهارة أبي الطيب وتفوقه في اللغة، ولست مع الشيخ فيما ذهب إليه؛ فتعمّد الغريب دون حاجة إليه عيب لا مبرر له، وخلو الكلام من الألفاظ الغريبة ممّا أجمع عليه أهل العلم في فصاحة الكلام، وما دام في المألوف ما يؤدي الغرض فلا حاجة للغريب، ومعيار الفصاحة أن تؤدى الألفاظ المأنوسة المعنى المراد بها على أكمل وجه، وما جاء به المتنبي لا وجه له بأي حال من الأحوال، ولو كان الهدف ما قاله الدكتور "ضيف" فإنه قد أوقع صاحبه فيما يأباه الذوق .ومحاولة المتكلم إثبات مهارته بجنوحه إلى الغريب المهجور، دون فائدة تعود على الكلام، فمما يُذمُّ به الكلام ولا يُحمد .

وهذا الجانب الذي أراد الدكتور ضيف أن يثبته للمتنبي ويجعل وروده في شعره أقرب للمدح منه إلى الذم، قد سبق وأشار إليه القدماء من أهل العلم، ومذهبهم فيه مذهب ابن الأثير من البيت؛ فهذا أبو منصور الثعالبي في حديثه عن المتنبي ما له وما عليه، أخذ عليه استعماله الغريب الوحشي في شعره ، وجاء فيه :" وَإِذا كَانَ المتنبي من الْمُحدثين بل من العصريين وَجرى على رسومهم فِي اخْتِيَار الْأَلْفَاظ الْمُعْتَادَة المألوفة بَينهم بل رُبمَا انحط عَنْهُم بالركاكة والسفسفة ثمَّ تعاطى الْغَرِيب الوحشي والشاذ البدوي بل رُبمَا زَاد فِي ذَلِك على أقحاح الْمُتَقَدِّمين حصل كَلَامه بَين طرفِي نقيض وَتعرض لاعتراض الطاعنين" (٢)

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٣٣٦، لناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثانية عشرة.
(٢) يتيمة الدهر ١٩٦/١

فقد بيّن أبو منصور أن هذا النهج جعل كلامه بين طرفي نقيض، وعرضة لاعتراض الطاعنين، فما ذهب إليه الدكتور شوقي لا ينهض به دليل، وهو مخالف لما عليه أهل العلم، ولو فرضنا أن المتنبي أراد أن يجعل لنفسه مذهبا خاصا به ليبرز تفوقه، فكل أهل العلم على ذم الغريب الوحشي الذي لا داعي له، وفي المألوف سعة له .

هذا ومما يجب التنبيه إليه أن البيت معاب من جهة أخرى لم يشر إليها ابن الأثير؛ وهي ما اشتمل عليه من تقديم وتأخير في أجزائه أدى إلى تعقيد في اللفظ، وصعوبة في الفهم، وقد أشار إلى هذا ابن سنان الخفاجي في " سر الفصاحة"؛ ففي حديثه عن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها، ذكر أن" لا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه، وإعرابه في بعض المواضع أو سلوك الضرورات، حتى يفصل فيه بين ما يقبح فصله في لغة العرب؛ كالصلة والموصول، وما أشبههما ولهذا أمثلة. "[1] ، وذكر بيتا للفرزدق وآخر لعروة بن الورد، ثم أبياتا للمتنبي منها البيت محل الدراسة، فالبيت عند الخفاجي معاب؛ لاشتماله على تقديم وتأخير وفصلٍ بين أجزائه، أدى إلى التعقيد.

وقد بيّن الشيخ حامد عوني ما اشتمل عليه البيت فقال:" وأصل التركيب هكذا: جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجفخون بها أي: افتخرت بهم طبائع دالة على ما كان لآبائهم من مناقب ومفاخر، وهم لا يفتخرون بها؛ لأنهم حاصلون على ما هو خير وأوفى، فقد فصل بين الفعل والفاعل وهما "جفخت شيم" بأجنبي هو جملة "وهم لا يجفخون بها" الواقعة حالًا، وفصل بين الصفة والموصوف وهما "شيم دلائل" بالجار والمجرور وهما قوله: "على الحسب الأغر"[2]

(١) سر الفصاحة ١١٣

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة ٣/٤٠

وختاما أقول : لفظة " جَفَخَت " في بيت المتنبي غريبة غير مألوفة ،وليس هناك داع إلى استعمالها ،وما قاله ابن الأثير ومن سار على دربه جاء في محله؛ وما ذكره الدكتور ضيف لا ينهض حجة تدفع عن أبي الطيب ما ذهب إليه.

المأخذ الثالث: قطع الكلمة عما بعدها.

في حديث ابن الأثير عن بلاغة اللفظة المفردة ذكر أنه يجب أن يتوافر لها ثلاثة شروط؛ حتى تقع موقعها اللائق بها؛ تلك الشروط تتمثل في حسن اختيار اللفظة قبل نظمها، وحسن مشاكلتها مع أخواتها في النظم؛ لئلا يجيء الكلام نافرا قلقا، ثم الغرض المقصود له الكلام، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر؛ وهذا الموضع يضلّ في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم.(١)

وفي هذا الجانب تعرض الرجل لبعض الألفاظ التي حسن استعمالها في موضع، وساء في موضع آخر، فاللفظة هي بعينها، ولكنك تجد لها من الجمال في موضع ما لا تجده في موضع آخر؛ ويُرجِع ذلك إلى أسباب كثيرة؛ منها أن اللفظة ترد في موضع مضافة لما بعدها؛ فتقع من البلاغة الموقع اللائق، ثم تجدها قطعت عن الإضافة في موضع آخر؛ فيتحول حسنها قبحا، و قد استشهد ابن الأثير على هذا الأمر بشاهدين وردا في شعر المتنبي، قُطِعت فيهما الكلمة عن الإضافة؛ فخرج الكلام بها عن حيز الفصاحة.

وفيما يلي أذكر هذين الشاهدين، ثم أناقش الرجل فيما قال، مع الاستئناس بكلام أهل العلم؛ لنصل إلى الرأي الأولى بالقبول.

(١) ينظر: المثل السائر ١/١٤٩

الشاهد الأول:

بيّنت فيما سبق أن ابن الأثير ذكر أن الكلمة قد تكون فصيحة في موضع، وخارجة عن حيّز الفصاحة في موضع آخر؛ منها كلمة" يُؤْذِى"، حيث وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم، وفي بيت لأبي الطيب، فجاءت جزلة متينة في الآية، وضعيفة ركيكة في البيت، وأرجع ابن الأثير السبب في ذلك إلى أنها في الآية جاءت مرتبطة بما بعدها، متعلقة به، وفي بيت الشعر مقطوعة، لا صلة لها بما بعدها، فجاءت أفضل ما يكون في الآية، وأقبح ما يكون في البيت، يقول ابن الأثير:" ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها. وسأضرب لك مثالًا يشهد بصحة ما ذكرته، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن جزلةً متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين، أما الآية فقوله تعالى :﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ ﴾ الأحزاب: ٥٣، وأمَّا بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي:(١)

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤذِي ... ومن يعشق يلذُّ له الغرامُ

كلام ابن الأثير بيّن في أن كلمة " تُؤذِي " جزلة في الآية، وفي البيت ضعيفة حطت من قدره، ومرد ذلك إلى أن الكلمة في الآية متعلقة بما بعدها، وفي البيت مقطوعة لا صلة لها بما بعدها؛ وفي ذلك يقول: "وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة "تؤذي" قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها في تركيب الآية... وهذه اللفظة التي هي "تؤذي" إذا جاءت في الكلام، فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به

(١) المثل السائر ١/١٤٩.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ جاءت في قول المتنبي منقطعة، ألا ترى أنه قال: " تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَة وَهِيَ تُؤذِي"، ثم قال: " ومن يعشق يلذُّ له الغرام "فجاء بكلام مستأنف."(١)

هذا وقد تبع ابنَ الأثير فيما ذهب إليه غيرُ واحد من أهل العلم؛ منهم القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ؛ حيث ذكر كلامه بفصه ونصه دون زيادة أو نقصان، فأورد الآية والبيت ثم قال: " فجاءت رثّة مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوّة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في بيت الشعر؛ والسبب في ذلك أن لفظة تؤذي إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها، متعلقة به كما في الآية الكريمة حيث قال:﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ ﴾، وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شيء تتعلق به؛ حيث قال:" تلذّ له المروءة وهي تؤذى"ثم استأنف كلاما آخر فقال:" ومن يعشق يلذّ له الغرام"وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبويّ مضافة إلى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطّلاوة بأطرافها؛ وذلك أنه لما اشتكى النبي صلّى الله عليه وسلّم جاءه جبريل فرقاه فقال: "بسم الله أرقيك من كلّ داء يؤذيك(٢)" فصارت إلى الحسن بزيادة حرف واحد، وهذا من السّرّ الخفي الذي يدقّ فهمه."(٣)

ما ذكره القلشندي ظاهرٌ أخذه من كلام ابن الأثير، وليس فيه زيادة إلا استشهاده بالحديث النبوي؛ على أن الكلمة محل الشاهد جاءت مضافة في البيان النبوي " يؤذيك"، فصارت إلى الحسن؛ بزيادة حرف واحد، وهذا من السّرّ الخفي

---

(١) المثل السائر ١/١٤٩.

(٢) ورد في صحيح مسلم بلفظ:" «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ"باب:بَابُ الطِّبِّ وَالْمَرَضِ وَالرُّقَى.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢/٢٨٣، ٢٨٤

الذي يدقّ فهمه، على حد تعبيره، فسر حسنها يرجع إلى إضافتها للكاف، وهو كلام يحتاج للمناقشة، وسيأتي هذا بعد ذكر قول من تبع ابنَ الأثير فيما ذهب إليه، حيث إن قولهم واحد؛ مأخوذ من كلامه.

وعلى هذا المنوال جاء كلام الشيخ يوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)؛ حيث يقول:" لفظه "تؤذي"آذت بيت المتنبي لضعف تركيبها فيه؛ وبيان ذاك: أن هذه اللفظة إذا أوردت في كلام، فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ليحسن موقعها، كما وردت في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ ﴾، وجاءت في بيت المتنبي منقطعة، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي، وأضيف لها كاف الخطاب، فأزال ما بها من الضعف والركة، وذاك أنه اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فجاء جبريل عليه السلام فقال:" باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك "، فإنه لما زيد فيها أصلحها وحسنها؛ ولهذا تزاد الهاء في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ الحاقة: ٢٨ – ٢٩وهذا الموضع غامض يحتاج إلى إمعان نظر، وربما ينكر هذا من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها فكم من لفظة واحدة وردت في موضعين زانت أحدهما، وشانت الآخر"[1]

لا يخفى على القاريء أن الكلام برمته مأخوذ من قول القلقشندي، فكلمة " تؤذي "ــ عنده ــ آذت بيت المتنبي؛ لأنها منقطعة عما بعده، فليس لها شيء تتعلق به، و ينكر هذا من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها، فالمشكلة جاءت من قطع الإضافة، وكان الحسن نصيبها لو أضيفت إلى ما بعدها.

وعلى نهجهم سار الدكتور عبد العظيم المطعني ــ رحمه الله ــ في حديثه عن الألفاظ التي حسنت في القرآن وعيبت في غيره؛ حيث ذكر الشاهد محل

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي١/٣٨٤

الدراسة ثم قال :" فقد عابوها في قول المتنبى ــ البيت ــ والسبب أن الشاعر قطع الكلمة – وهي ثقيلة – عن الإضافة ،...ولو أضافها لخفف من ثقلها. وقد جاءت في القرآن في مواضع هي فيها حسنة رائقة. وذلك في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾. لذلك كانت هذه الكلمة. – هنا – أجمل منها في بيت المتنبي. والحكم في ذلك للأذن الموسيقية ".فالقرآن – كما ترى – استعمل الكلمة واقعة على مفعول " النبي " فخفت ورشقت، وهي في قول المتنبي مقطوعة عن الإضافة"(١)

أقول: لو جعل الشيخ المطعني الحكم في ذلك للذوق والأذن الموسيقية ــ كما قال ــ ، دون ردها إلى أن عيبها بسبب قطعها عن الإضافة ، كان أسلم وأدق في الحكم ، كما سيأتي.

وعلى نهج السابقين جاء قول الأستاذ الدكتور علي علي صبح ــ رحمه الله ــ : " فهل لكلمة "تؤذي" –وفيها ما فيها من القبيح– مكان من أخواتها في الصورة التي تدل على الجمال والحب والوفاء، وهي: "تلذ، المروءة، يعشق، يلذ، الغرام" بل البيت كله، وبها اختلت الصورة واضطرب الانسجام في البيت..."(٢)، ثم ذكر كلام ابن الأثير، ولست أدري أي قبح هذا الذي يعنيه أستاذنا ــ رحمه الله تعالى ــ ، أهو معنى الإيذاء المستفاد من الكلمة ؟ فهي على النقيض من الألفاظ التي جاءت بعدها ، وهي تدل الجمال والحب والوفاء على حد قوله .

رأي المخالفين :

كلام ابن الأثير السابق لا يسلم من النقد؛ فما رآه عيبا مخلا بالفصاحة في بيت المتنبي، رأه غيره حسنا مليحا؛ وفيما يلي أذكر تلك الأقوال :

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢٤٧/١

(٢) الصورة الأدبية تاريخ ونقد ٩٠

ابن وكيع التنيسي(المتوفى ٣٩٣ هـ)

يعد ابن وكيع أول المخالفين للرأي السابق؛ فقد حكم على كلام المتنبي بالحسن، وأنه فاق غيره في هذا المقام؛ فبعد أن ذكر بيت المتنبي محل الدراسة، والبيت الذي بعده:

تعلّقها هَوى قَيسٍ لليلى ... وواصلها فليس به سقامُ

قال: "وهذا كلام مستوفي الأقسام، مليح النظام؛ أخبرنا بالتذاذه بالمروءة التي يثقل حملها على الناس، وشبه ذلك بالتذاذ العاشق الغرام، وذكر أن تعلقه لها قيس لليلى، وهي في نهاية التعلق بها"[١] ... ثم ذكر شعرا لابن الرومي، وآخر لشاعر يدعى الخليع الحراني، وفضل شعر المتنبي عليهما؛ حيث قال:" وبالجملة فكلام المتنبي أرجح من جميع هذا كله وهو أحق بما أخذ ."[٢]

كلام المتنبي عند ابن وكيع مستوفي الأقسام، مليح النظام، متقدم في الحسن على غيره، ومن المعلوم أن ابن وكيع متقدم على ابن الأثير؛ فلا أُبالغ إذا قلت إن الثاني لم يقف على كلام الأول، وإلا لناقشه فيما قال .

ابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ):

ذكر أبياتا من قصيدة المتنبي التي منها البيت محل الشاهد ثم قال :" وما أحلى قوله منها:[٣]

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤذِي ... ومن يعشق يلذُّ له الغرامُ

استحسن ابن حجة أبياتا من القصيدة التي منها الشاهد محل الدراسة، وكان أحسنها وأحلاها عنده هذا البيت الذي عابه ابن الأثير، ولم يذكر ابن حجة الوجه الذي استحسن به البيت، وصنيع ابن وكيع السابق كان أحسن من صنيع ابن حجة؛ حيث أصدر ابن وكيع حكما نقديا مشفوعا بعلته، أما الثاني فلم يزد عن استحسانه

---

(١) المنصف للسارق والمسروق منه ٥٠١

(٢) السابق

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ١٩٩/١

البيت، دون أن يعلمنا وجه الحسن الذي بنى عليه مذهبه، لكن لا يقدح هذا فيما ذهب إليه، ولو وجد ابن حجة عيبا بالكلام لأشار إليه وما سكت عنه .

الشيخ الطاهر ابن عاشور :

الشيخ ابن عاشور لم يعجبه صنيع ابن الأثير؛ حيث قال:" وَاعْلَمْ أَنَّ فِي وُرُودِ "يُؤْذِي" [١]هُنَا مَا يُبْطِلُ الْمِثَالَ الَّذِي أُورَدَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِ «الْمَثَلِ السَّائِرِ» شَاهِدًا عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ قَدْ تَرُوقُ السَّامِعَ فِي كَلَامٍ ثُمَّ تَكُونُ هِيَ بِعَيْنِهَا مَكْرُوهَةً لِلسَّامِعِ. وَجَاءَ بِكَلِمَةِ يُؤْذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَنَظِيرُهَا (تُؤْذِي) فِي قَوْلِ الْمُتَنَبِّي:" تلذ لَهُ الْمُرُوءَة وَهِيَ تُوذِي " وَزَعَمَ أَنَّ وَجُودَهَا فِي الْبَيْتِ يَحُطُّ مِنْ قَدْرِ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْبَيْتُ وَأَحَالَ فِي الْجَزْمِ بِذَلِكَ عَلَى الطَّبْعِ السَّلِيمِ، وَلَا أَحْسَبُ هَذَا الْحُكْمَ إِلَّا غَضَبًا مِنِ ابْنِ الْأَثِيرِ لَا تُسَوِّغُهُ صِنَاعَةٌ وَلَا يَشْهَدُ بِهِ ذَوْقٌ، وَلَقَدْ صَرَفَ أَيِمَّةُ الْأَدَبِ هَمَّهُمْ إِلَى بَحْثِ شِعْرِ الْمُتَنَبِّي وَنَقْدِهِ فَلَمْ يَعُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ هَذَا مُنْتَقَدًا، مَعَ اعْتِرَافِ ابْنِ الْأَثِيرِ بِأَنَّ مَعْنَى الْبَيْتِ شَرِيفٌ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ كَرَاهَةَ هَذَا اللَّفْظِ فِيهِ رَاجِعَةٌ إِلَى أَمْرٍ لَفْظِيٍّ مِنَ الْفَصَاحَةِ، وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ مِنَ الْإِخْلَالِ بِالْفَصَاحَةِ"[٢]

كلام الشيخ ابن عاشور بيّن في أنه غير راض بما قاله ابن الأثير، وجعل صنيع ابن الأثير غضبا منه لا تسوغه صناعة ولا يشهد به ذوق، وأن أئمة الأدب الذين صرفوا هممهم إلى دراسة شعر المتنبي لم يجعلوا هذا منتقدا عليه .

ويمكن مناقشة الشيخ ابن عاشور في أمرين :

الأول: ما ذكره من أن كثيرا من أهل العلم والأدب قد صرفوا همهم قِبَل شعر المتنبي ولم يعد أحد عليه هذا منتقدا .

أقول: قد غاب عن الطاهر ابن عاشور صنيع كثير من أهل العلم الذين اقتفوا أثر ابن الأثير، وقالوا ما قاله؛ كما بيّنت السطور السابقة.

---

(١) إشارة إلى ورودها في الآية الكريمة.

(٢) التحرير والتنوير

ثانيا: قوله :" وَلَا أَحْسَبُ هَذَا الْحُكْمَ إِلَّا غَضَبًا مِنِ ابْنِ الْأَثِيرِ لَا تُسَوِّغُهُ صِنَاعَةٌ وَلَا يَشْهَدُ بِهِ ذَوْقٌ" لا أرضى به؛ فابن الأثير قد ذكر في غير موضع من كتابه أنه عدل إلى شعر المتنبي دون غيره؛ لما يتمتع به من مكانة عالية عنده، وقد ذكرت في التمهيد لهذا البحث أن الرجل قد اتجه إلى شعر أبي تمام، والبحتري، وأبي الطيب المتنبي؛ لأن هؤلاء الثلاثة عنده هم لات الشعر وعزاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، فمن أنزلهم تلك المنزلة لا يقال عنه ما قاله الشيخ ابن عاشور، ولو كان في نفس ابن الأثير شيء من المتنبي ما قال هذا، وهو الذي قال عن أبي الطيب:" تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى."(١)

ولو أن الشيخ ابن عاشور قال: ولا وجه لابن الأثير فيما ذهب إليه لكان أولى؛ ولا سيما أن الرجل قد أحال على الذوق والطبع، ولست أدري ما الذي في الكلمة ما يشذّ عن الطبع والذوق السليم، وعلة الرجل أن الكلمة جاءت مقطوعة عن الإضافة .

وختاما أقول :

لست مع ابن الأثير فيما ذهب إليه؛ فلا وجه لما قاله، وكل الذي فعله أن جاء بالبيت في سياق مقارنته بالآية الكريمة، وكون الكلمة جاءت مضافة في الذكر الحكيم، لا ينفي البلاغة عنها إذا جاءت مقطوعة عن الإضافة في سياق آخر، وإنما البلاغة تقتضي أن نبيّن موافقة الكلمة لسياقها، وحسن تعبيرها عن مراد قائلها أم لا، ولو شغل ابن الأثير نفسه بهذا الجانب كان أجدى وأولى، وكان لكلامه أساس يعتمد عليه.

ولو وقف القاريء مع سياق البيت، والغرض المسوق له الكلام، لظهر له أن البلاغة فيما قاله المتنبي؛ وأنّ قطع الكلمة عما بعدها يتفق مع سياق البيت؛ حيث إن

(١) المثل السائر ١٦٧/١

هذا الصنيع يجعل النفس تذهب كل مذهب في هذا الإيذاء التي تحدثه المروءة في صاحبها، فهي تفني مالا، وربما تُذْهِبُ نفسا، ...إلى غير ذلك مما يكون نتيجة للمروءة، والعموم المستفاد من قطع الإضافة يقتضيه المقام ، ولو أضافها لشيء لذهب عن الكلمة رونقها، وغاب عنها كثير من المعاني التي يريدها الشاعر، وكلام ابن الأثير لا تفهم منه إلا أن كل كلمة جاءت مقطوعة عن سياقها كانت على هذ النحو من الذم الذي أشار إليه، حتى ولو كانت فصيحة، وأن كل كلمة جاءت مضافة كانت محمودة وإن كانت غير فصيحة، وهذا لا يقول به أحد .

هذا وبالبحث وجدت الكلمة التي عابها ابن الأثير لقطعها عن الإضافة قد وردت في عبارة عند سيبويه مقطوعة عن الإضافة؛ ففي حديثه عن المعاني التي تأتي عليها " أن " قال :" وتقول: إنَّ لك هذا علي وأنَّك لا تؤذي، كأنك قلت: وإن لك أنَّك لا تؤذي"(١)، انتهى كلام صاحب الكتاب وهو كما ترى جاءت كلمة " تؤذي " مقطوعة عما بعدها، ولو كان قطع هذه الكلمة عما بعدها مخلا بفصاحتها ما استشهد بها سيبويه وهي على هذا النحو .

وهناك قول لابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ جاءت الكلمة فيه مقطوعة عن الإضافة؛ ذكر الأزرقي (المتوفى: ٢٥٠هـ) أن ابْنَ عَبَّاسٍ، يَقُولُ: «إِذَا وَجَدْتَ عَلَى الرُّكْنِ زِحَامًا فَلَا تُؤْذِ وَلَا تُؤْذَى»(٢)؛ ولا يقول قائل إن ما قاله ترجمان القرآن غير فصيح؛ فالكلمة بعينها وردت عند ابن عباس؛ ولا تعلق لها بشيء بعدها، وما عابها أحد، ولا يخفى أن العموم المستفاد من قطعها عن الإضافة في القول السابق هو سر بلاغتها؛ فالمعنى لا يقع منك أذى لأي مخلوق، ولن يؤذيك أحد، وهو غاية الأمن، ولو أضيفت الكلمة إلى غيرها في هذا المقام لذهب عنها تلك النكتة، وما قيل هنا يقال في بيت المتنبي على النحو الذي سبق ذكره.

---

(١) الكتاب ١٢٣/٣

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ٣٣٤/١، المحقق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر بيروت .

بهذا يمكن القول: إنه لا وجه لابن الأثير فيما ذهب إليه؛ حيث إن السياق يقتضي قطعها عن الإضافة، وقد جاء عند ابن عباس وسيبويه ما يدفع أن قطع الكلمة عن الإضافة يذهب ببلاغتها. وكان الأولى بابن الأثير ومن سار في ركبه أن يبيّن لِمَ كان قطع الكلمة عن الإضافة مخلا بها؟، وأن ما جاء عند الشيخ ، ومن سار على دربه حكم لا ينهض به دليل، دون إن يكون هناك أساس لهذا الكلام .

الشاهد الثاني :

مرة أخرى يعيب ابن الأثير لفظة للمتنبي جاءت على نحو غير لائق؛ حيث وردت منقطعة عما بعدها، وجاء ذلك في سياق حديثه عن لفظة" لي "من خلال مجيئها في الذكر الحكيم، ووروردها في بيت للمتنبي؛ فقد وردت في الذكر الحكيم متعلقة بما بعدها، فكانت لائقة في مواضعها، وجاءت الكلمة نفسها في بيت للمتنبي لا صلة لها بما بعدها فكانت عيبا عنده؛ على النحو الذي سبق في الموضع الأول .

يقول ابن الأثير: "وكذلك ورد في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ ص: ٢٣ فلفظة "لي" أيضًا مثل لفظة "يؤذي" وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة، كقول أبي الطيب أيضًا[1]:

تمسي الأمانيُّ صرعى دون مبلغه ... فما يقول لشيءٍ ليت ذلك لي

هذا البيت من شواهد التذييل عند علماء البلاغة؛ وهو تعقيب الكلام بجملة أخرى تشتمل على معناه بقصد التوكيد، وهو غير جار مجرى المثل عندهم، وهو من الأبيات الشائعة عند أهل العلم في الاستشهاد على هذا النوع من الإطناب، وهو على شهرته لم يسلم من نقد ابن الأثير؛ كما سبق بيانه.

(١) المثل السائر ١٥٣/١

وموضع النقد فيه يتمثل في قطع كلمة " لي" عن الإضافة؛ حيث إنها لا تتعلق بشيء بعدها ، بخلاف ما جاء في آية سورة "ص"؛ من مجيء الكلمة لها صلة بما بعدها ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾

هذا ولا أعلم أحدا قبل ابن الأثير عاب هذا البيت من تلك الناحية، وبتتبع بيت المتنبي السابق في ضوء ما قاله ابن الأثير أجد فيه اتجاهين مختلفين لأهل العلم:

الأول: سلك مسلك ابن الأثير في أخذه على المتنبي هذا الأمر؛ فعابوا البيت كما عابه صاحبهم، ولكن يؤخذ عليهم أنهم رددوا كلامه بفصه ونصه أو معناه دون جديد يذكر، ولم يَشْغل بالَ واحد منهم أن يبيّن لنا كيف كان قطع الكلمة عما بعدها مخلا ببلاغة البيت؟! فيكون الكلام قائما على أساس من النقد السديد، وإنما كل صنيعهم أن يقولوا ما قال الأول، وهذا الأمر على عمومه لا أميل إليه، ولا أرضى به؛ فليست مهمة العالم أن يردد الكلام، دون أن يبيّن لِمَ كان هذا الرأي سديدا دون غيره ؟ فكلٌ جهدهم في هذه المسألة أن ينقلوا كلام ابن الأثير دون مناقشة أو إضافة تبيّن صواب قولهم، أوخطأ غيرهم، وليس هذا الأمر خاصا بمن عاب البيت بل عند الفريقين سواء، ممن استحسن أو استهجن .

هذا ولن أذكر كل الأقوال التي اقتفت أثر ابن الأثير؛ إذ لا فائدة من ذكرها، فالمضمون في كلٍ واحد، ولا جديد فيها يذكر، وإنما أذكر على سبيل المثال كلام الشيخ يوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)؛ صاحب :" الصبح المنبي عن حيثية المتنبي"؛ حيث نقل كلام ابن الأثير دون زيادة أو نقصان؛ مما يعني أنه راض به، فقد جاء عنده " وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة،.." وذكر البيت؛ فهو ـــ كما ترى ـــ كلام لا جديد فيه يذكر؛ ولا علة يبين بها وجها لما قاله.

الثاني: وهو قول أكثر أهل العلم؛ وهو استحسان ما عابه ابن الأثير، وأخذوا يوازنون بين هذا البيت وما يماثله، والجميع على تقديمه، و ما جعل واحد منهم ــ في سياق تلك الموازنات ــ قطع كلمة " لي " عن الإضافة عيبا.

وأبدأ بالقاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ) ؛ ففي سياق حديثه عن قول البحتري:

وَمُظَفَّرٌ بالمَجْدِ إدْرَاكاتُهُ ... فِي الْحَظّ زَائِدَةٌ عَلى أوْطارِهِ

ذكر قول أبي الطيب محل الدراسة، ثم قال :" وقد فسر ما أغفله البحتري"(١)، وذكر بيت المتنبي.

أقول: القاضي الجرجاني يقدم بيت المتنبي على قول البحتري، ولا أشك أن ناقدا كالجرجاني يقدم قولا على قول آخر، ويعلم أن به عيبا ويسكت دون أن يصرّح به؛ فمثل هذا لا يكون منه.

وإذا كان الجرجاني لم يصرح باستحسان البيت، وفُهِم ذلك ضمنا، فإن الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) أعلن رفضه لما قاله ابن الأثير، واستحسن البيت فقال:" أي شيء أنكره من هذه اللفظة: وليس الذي ذكره غير دعوى مجردة، وهذه لفظة "لي" قد وقعت متمكنة، والقافية إذا جاءت متمكنة فإنها من حسن التركيب وعذوبة الانسجام. وأما لفظة تؤذي في قوله: " تلذ له المرؤة وهي تؤدي" فإنها جاءت ركيكة بخلاف "لي "في البيت المذكور. ولا تعاب هذه في هذا البيت، إلا أن تعاب لفظة "بي" في قوله:

أَزُورُهمْ وَسَوادُ اللَّيْلَ يَشْفَع لِي ... وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يَغْرِي بِي

وما رأيت من عاب هذا البيت ولا هذه القافية، وإنما هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب، لما فيه من مقابلة خمسة بخمسة. ولم يتفق هذا العدد لغيره.:"(٢)

واصح من النص السابق أن الصفدي سار في ركب من عاب كلمة " تؤذي " في الموضع السابق ذكره؛ فهي عنده ركيكية على حد قوله، أما في هذا الموضع فإن كلمة "لي" متمكنة في موضعها، والقافية إذا جاءت متمكنة في موضعها فإن ذلك

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٨٥

(٢) نصرة الثائر٢٩

من حسن التركيب وعذوبة الانسجام، و كلمة " لي " على شاكلة " بي" في البيت السابق الذي اشتمل على خمس مقابلات، وهو عدد لم يتفق لغيره من الشعراء، وهو من المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب .

مفاد هذا أن كلمة:" لي " عند الصفدي من الحسن بمكان، وأن من عابها هي دعوى مجردة لا دليل على صحة قوله، ومن عاب "لي" في هذا البيت يلزمه أن يعيب " بي " في البيت الثاني، وهي من المحاسن التي سبق إليها أبو الطيب، عند أهل العلم كافة، يقول أبو البقاء العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ) :" وَقد أجمع الحذاق بِمَعْرِفَة الشّعْر والنقاد أَن لأبى الطّيب نَوَادِر لم تأت فى شعر غَيره وهى مِمَّا تخرق الْعُقُول مِنْهَا هَذَا الْبَيْت ."[١]، فأيُّ فرق بين الحرفين حتى نذم واحدا ونمدح الآخر ؟ وهما من باب واحد !

يقول الشيخ محيي الدين درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ):" ومن أروع أمثلة التذييل في الشعر قول شاعر الخلود أبي الطيب:...وذكر البيت ..ثم علق قائلا:" لا تصل الأماني إلى قلبه فتستميله، ولا إلى لسانه فتجري عليه لأنه لا يحتاج أن يتمنى شيئا إلا وله خير منه أو صار له ذلك الشيء فالأماني تقصر عن بلوغ قدره، وتقصر عن جلالة أمره وتمسي صرعى دون إدراك مجده فما يتمنى في الرفعة أكثر مما قد بلغه، ولم يزل سيف الدولة لهجا بهذا البيت معظما له، مثنيا عليه، مقرا له بأنه لا يلحق سبقا ولا يأتي أحد في بابه من المبالغة بمثل ما أتى به."[٢]

وفي النهاية أقول: إن ما قاله ابن الأثير ومن سلك مسلكه لا وجه له؛ فالكلمة جاءت متمكنة في مكانها، ولا يقدح فيها قطعها عما بعدها، وأن البلاغة تقتضي أن ننظر في الكلمة في إطار سياقها؛ فلا عبرة بتعلقها بما بعدها أو قطعها، وأن مثل هذه الأحكام العامة إن استقامت في موضع، فلا نجعل منها حكما عاما على كل شبيه لها.

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١٦١/١

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٣١٢/٦، ٣١١

المأخذ الرابع: المعاظلة.

مرة أخرى يأخذ ابن الأثير على المتنبي مسألة تقدح في بلاغة الكلام؛ وهي ما يُعرف بين أهل العلم باسم المعاظلة؛ وقد عُرِفَت عند المتأخرين باسم التعقيد اللفظي أو المعنوي، وهي أن يدخل بعض أجزاء الكلام في بعض، بصورة يصعب النطق بها، وتكره الأذن سماعها، ولا يصل السامع إلى فهم الكلام إلا بكد الذهن، يقول الخوارزمي (المتوفى: ٣٨٧هـ):" ومن عيوب الكلام: المعاظلة والتعقيد، وهو مداخلة بعضه في بعض؛ حتى لا يفهم إلا بكد الخاطر، وتكرار السماع أو النظر"(١)

وهذا النوع من الكلام محل ذم بين أهل العلم كافة، ويمدح المتكلم بتركه؛ وقد مدح عمرُ بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ زهيراً بمجانبته لها، فقال: "وكان لا يعاظل بين الكلام."(٢)

والمعاظلة عند ابن الأثير ضربان: معنوية وهي أن يكون في الكلام تعقيد وخفاء في المعنى؛ نتج من تقديم وتأخير بين أجزائه، ولفظية ولها صور كثيرة؛ منها كثرة الإضافات، تكرار الحروف، مجيء الكلام على صيغة واحدة متعددة.

وكان ابن الأثير يكره هذا النوع من الكلام جدا، ففي سياق حديثه عنه ذكر شواهد له عند أبي تمام وقال:"من المعاظلة التي قلع الأسنان دون إيرادها..وعلق على بيت أخر قائلا : وهذا كالأوّل في قبحه وثقله، فقاتله الله! ما أمتن شعره! وما أسخفه في بعض الأحوال!... ولو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلّا هذه الأبيات لحطَّت من قدره."(٣)

فهو عيب من العيوب التي لم يسلم منها كثير من فحول الشعراء، وقد تعرض ابن الأثير لشواهد للمعاظلة وردت عند المتنبي؛ أذكرها فيما يأتي.

---

(١) مفاتيح العلوم٩٠، المحقق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الثانية

(٢) نقد السعر ٦٦

(٣) ينظر المثل السائر ٣١٠/١ وما بعدها

الشاهد الأول: وهو من تتابع الصفات قوله :

دانٍ بعيـــدٍ مبغضٍ بهجٍ ... أغــرّ حلو مُمِرّ ليِّنٍ شرس(١)

ندٍ أبيٍّ غرٍ وافٍ أخي ثقةٍ ... جعدٍ سريٍّ ندبٍ رضًى نَدُس(٢)

هذا البيتان ــ عند ابن الأثيرــ على شاكلة كلام أبي تمام؛ والذي قال فيه وهذا كالأوّل في قبحه وثقله، فقاتله الله! ما أمتن شعره! وما أسخفه في بعض الأحوال!... ولو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلّا هذه الأبيات لحطَّت من قدره، فحكمها عند الشيخ في القبح والسخافة سواء؛ حيث قال :" وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي"(٣)، وذكر البيتين السابقين .ثم علق عليهما قائلا:"وهذا كأنه سلسلة بلا شك، وقليلًا ما يوجد في أشعار الشعراء،...وهي توجد في شعر أبي الطيب كثيرًا."(٤)

وقد أخذ العلوي كلامَ ابن الأثير وزاده إيضاحا فقال :" فلما حصلت هذه الأوصاف على هذه الصفة ثقلت على الألسنة ومجتها الآذان، وصارت بمنزلة سلسلة بلا شك، وقطع فضة أو ذهب مبددة من غير سبك، وليس يخفى على من له أدنى ذوق مخالفة هذا لقوله تعالى﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الحشر، مع كونها أوصافا متعددة

---

(١) البهج الفرح، والشرس هنا الصعب، ومعنى البيت: هو قريب ممن يقصده، بعيد ممن ينازعه، محب للفضل وأهله، مبغّض للنقض وأهله، يبهج بالقصاد، حلو لأوليائه، مر على أعدائه، لين حسن الخلق على الأولياء، شرس صعب على الأعداء، يريد أنه جامع لهذه الأوصاف. من كلام د أحمد الحوفي في تعليقه على المثل السائر.٣١٢

(٢) ند: جواد، يريد ندى الكفِّ، والأبيّ: الذي يأبى الدنايا، غر: أي مغرى يفعل الجميل جمد ماض في الأمر، والسرى: الشريف، وأنه: أي ذو نهية وهي العقل، والندب: السريع في الأمر إذا ندب إليه، والندس: العارف بالأمور البحاث عنها، وهو بضم الدال وكسرها. السابق

(٣) المثل السائر ٣١٥/١

(٤) السابق.

من غير واو، لكن بينها بعد لا يدرك أمده، ولا ينال حصره ولا عدده، فى حسن التأليف وجودة السبك ولذة المسموع وسهولة الأسلوب."[١]

كلام العلوي بيانٌ لكلام ابن الأثير؛ حيث وضح المراد بقوله:" كأنه سلسلة"، غير أن كلام صاحب "الطراز" فيه زيادة فائدة؛ حيث بيّن أن تتابع الصفات في ذاته ليس هو المعول عليه في ثقل الكلام؛ وإنما الذوق وحسن التأليف وجودة السبك ولذة المسموع وسهولة الأسلوب؛ بدليل الآية الكريمة ، فقد تتابعت فيها الأسماء دون عاطف، ومع ذلك لا تجد صعوبة في النطق، ولا بعدا في الفهم، ولا ثقلا في السمع، وإنما جاءت جارية على اللسان أعذب مايكون، وهذا حسن جدا من العلوي؛ فليس كل تتابع للأسماء مذموما، وإنما المذموم منه ما جاء مخالفا للذوق.

وقريبا من قول العلوي قول الدكتور أحمد الشايب؛ فقد ذكر أن مثل هذا النمط يعطي رتابة صوتية في الكلام، فما إن تسمعه إلا وجاءك الملل والثقل من أقصر طريق، إن سرعة الأذن في إدراك الرتابة الصوتية التي تبدو في ترديد نغمة بعينها في النص الأدبي حيث تبعث الملل، وخير منه التنويع الذي يحتفظ فيه بمستوى الموسيقى لتلائم الموضوع. وكثيرًا ما يقع الكتاب والشعراء والخطباء في هذا الخطأ وهو نوع من المماطلة اللفظية وقع فيه الشاعر حيث قال..."[٢]،وذكر البيت محل الدراسة، فالتنويع في الكلام عنده خيرٌ من وروده على نهج واحد يخرجه عن الرتابة والملل.

والبيت السابق من الأبيات الشائعة عند أهل العلم؛ يستشهدون به على العيوب التي تلحق الكلام، والجميع على قول ما قاله ابن الأثير دون زيادة؛ يقول الشيخ أحمد المراغي :" ولا يخفى ما فيه من الثقل فما أشبه بسلسلة طويلة متصلة الحلقات."[٣]، ويقول ابن حبنكة :" وعلّته إيراد صفاتٍ متعدّدات على نَسَقٍ واحدٍ."[٤]

---

(١) الطراز ٣/٣٢

(٢) ينظر: الأسلوب ٢٠١

(٣) علوم البلاغة ٢٧

(٤) البلاغة العربية ١/١١٩

أقول: ما قاله ابن الأثير ومن نهج نهجه في محله؛ فكلام أبي الطيب ثقيل على اللسان، تشعر بالتكلف فيه، وليس هناك وجه لما ذهب إليه، وأن الذوق السليم يأبى هذا، وقول العلوي في هذا المقام كان خير الأقوال؛ حيث أرجع القضية للذوق والاستعمال، وشفع ذلك بما جاء في الذكر الحكيم، فقد تتابعت الصفات لكن بطريقة بديعة، تأنس النفس بها، وتستريح الأذن لها، وتجري الكلمات على اللسان دون مشقة أو عناء، وهذا هو الفرق بين الكلام المعجز وكلام البشر.

الشاهد الثاني:

وفيه جاءت المعاظلة من ورودها على نهج واحد من الصيغة الفعلية يتبع بعضها بعضًا؛ يقول أبو الطيب:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ أَحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ(١)

ذكر ابن الأثير البيت شاهدا على المعاظلة التي تنشأ من وورود الكلام على صيغة واحدة؛ وهي تكرار فعل الأمر، فقد اشتمل البيت على أربع عشرة صيغة للأمر، يقول ابن الأثير:"

فهذه الألفاظ جاءت على صيغة واحدة، وهي صيغة الأمر، كأنه قال: "افعل افعل ... ، هكذا إلى آخر البيت" وهذا تكرير للصيغة، وإن لم يكن تكريرًا للحروف، إلّا أنه أخوه ولا أقول ابن عمه."(٢)

كلام الرجل بيّن لا يحتاج إلى تعليق، فتكرار صيغة الأمر على النحو السابق أشبه بتكرار حرف أكثر من مرة في كلمة واحدة؛ أدى إلى صعوبة في النطق،

---

(١) أقل من الإقالة في العثرة، أنل من الإنالة والإعطاء، أقطع من الإقطاع، احمل من قولهم حملة على فرسه، عل من الاستعلاء والعلو، أسل من السلو أعد أي أعدني إلى موضعي من الجوائز، زد أي زدني مما كنت أعهده منك، هش من الهشاشة وهي التهلل، والبشر من بش البشاشة وهي الشر وطلاقة الوجه، تفضل من الأفضال، ادن أي قربني إليك، وقوله: سر من التسري وهو أن يعطيه جارية يتسراها، صل من الصلة.خزانة الأدب ٢٤٧/١

(٢) المثل السائر ١١٥/١

وكراهية في السمع، ولا أعلم أحدا استحسن صنيع المتنبي، فالجميع على ذم كل كلام ورد على تلك الشاكلة.

وقد سبق ابنُ رشيق إلى هذا المأخذ؛ فبعد أن ذكر البيت قال:" ثم زاد في هذا وتباغض حتى صنع.. وذكر بيتا على شاكلته من المعاظلة، ثم قال: فهذه رقية العقرب.." [١] ، فانظر ــ حفظك الله ــ إلى قوله :" فهذه رقية العقرب"؛ فالكلام صار أشبه بالطلاسم التي تستخدم في العلاج من لدغة العقرب، وهو يغني عما يقال في هذا المقام، من الثقل، والتكلف والخفاء .

وعلى شاكلة ابن رشيق وابن الأثير جاء قول العلوي :"وفيها ما ترى من الثقل على المسموع من أجل تكريرها على هذا الوجه، وقد تضمن سياقها تركيبا وتداخلا مكروها."[٢]

وقد ذكر ابن حجة الحموي أن هذه الجمل القصيرة المتتابعة على هذا النحو، الذي ورد في بيت أبي الطيب لم يرد له ذكر في فصيح الكلام؛ حيث يقول:"فإن هذه الجملة ما استولت عليها عقادة التركيب إلا لكون كل كلمة منها فعل أمر، ولم يأت في الجملة القصيرة على هذه الصفة شيء من فصيح الكلام."[٣]

هذا وقد حاولت أن ألتمس وجها لما قاله أبو الطيب فلم أجد إلا أن أقول ما قاله ابن حبنكة في تعليقه على البيت:".. جَمَعَ أَفْعالَ أمْرٍ دون عاطفٍ بينها، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة:.. دفعه إلى هذا ولَعُه بالإِغْرابِ والإِبداع."[٤]، فالرجل كان مولعا بالإغراب، ولكن لا يكون هذا على فصاحة الكلام.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٣٠/٢

(٢) الطراز ٣١/٢

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٧٤/١

(٤) البلاغة العربية ١١٨/١

الشاهد الثالث:

في حديث ابن الأثير عن المعاظلة اللفظية ذكر منها تلك التي تنشأ من:"تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم، فيثقل حينئذ النطق به، فمن ذلك قول بعضهم:(١)

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْر ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وبعد أن ذكر البيت السابق ــ وهو من أشهر الشواهد التي استشهد بها البلاغيون على تنافر الكلمات ــ قال:" ومِن المعاظلة بتكرار الحرف قول أبي الطيب في قصيدته التي مطلعها:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاق...(٢)

كَيْفَ تَرْثِي الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ ... رَاءَها غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِي(٣)

يقول ابن الأثير :" وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصَّرع التي تنوب في بعض الأيام!"(٤)،

ولم أجد ابن الأثير حادا في أخذه على أبي الطيب مثل هذه المرة؛ حيث جعل هذا الكلام وأشباهه لا يقول به عاقل؛ وإنما يأتي به من كان به صرع، فذهب عقله، وجاء بما لا يعقل، على حد تعبيره.

والحقيقة أن بيت أبي الطيب مذموم بين أهل العلم كافة؛ وأول من ذمه القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)؛ فقد ذكر عدة أبيات أخذها أهلُ العلم على المتنبي، منها البيت محل الدراسة، وقال بعدها: "قد جمع في هذه الأبيات وفي غيرها مما احتذى به حذوَها بين البرد والغثاثة، وبين الثُقل والوخامة، فأبعد

---

(١) المثل السائر ٣٠٩/١

(٢) تمام البيت: تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي؟

(٣) معنى البيت: كيف تَرْحَمُ هذِهِ الْمَعْشُوقَةُ عَاشِقَهَا وهِي تَرَى كلَّ الأَجْفَانِ باكيَةً غيْرَ جَفْنِهَا، فتحسبُ أَنَّ العيون تذرف الدمع بالْخِلْقَةِ لاَ من العشق، لذلك فلا تُسْتثارُ فيها الرحمةُ على العشّاق. البلاغة العربية ١١٨/١

(٤) المثل السائر ٣١٠/١

الاستعارة، وعوّص اللفظ، وعقّد الكلام، وأساء الترتيب، وبالغ في التكلّف، وزاد على التعمّق؛ حتى خرج الى السّخف في بعض، والى الإحالة في بعض."[١]"

وعلى شاكلته جاء كلام أبي منصور الثعالبي؛ حيث ذكر مطلع القصيدة شاهدا على براعة الاستهلال ، ثم ذكر أن المتنبي أساء وأفسد كلامه بالبيت محل الدراسة، يقول:" وهو ابتداء ما سمع بمثله، ومعنى تفرد بابتداعه، ثم شفعه بما لا يبالي العاقل أن يسقطه من شعره فقال:.." وذكر البيت [٢]

من خلال الكلام السابق أشعر أن ابن الأثير قد أفاد من كلام الثعالبي السابق؛ حيث ذكر الثاني أن العاقل عليه أن يسقط مثل هذا الكلام من شعره، فلا يأتي به إلا من ذهب عقله، ألا تجد هذا جليا في قول ابن الأثير:" وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصَّرع التي تنوب في بعض الأيام!

وعلى شاكلة السابقين في ذم بيت أبي الطيب جاء كثير من أقوال أهل العلم؛ يقول ابن أبي الأصبع ٦٥٤:" ولقد أحسن أبو الطيب ما شاء في قوله:... لو لم يكدر صفوه ويقبح حسنه بقوله:.. وذكر البيت "[٣]،ومثله جاء كلام " الصبح المنبي عن حيثية المتنبي":" وهذا ابتداء ما سمع بمثله، ومعنى تفرد بابتداعه، لولا ما كدر صفوه، وقبح حسنه وشفعه بما لا يبالي العاقل أن يسقطه من شعره، وهو قوله: وذكر البيت، فبينما الذوق يستلذ حلاوة البيت الأول، إذ شرق بمرارة البيت الثاني."[٤]

وفي النهاية أقول: ما ذهب إليه ابن الأثير ومن تبعه، في ذم بيت أبي الطيب في محله؛ فالبيت ثقيل، ولا وجه له فيما قال، ولو ذهب الباحث يلتمس عذرا للمتنبي لن يجد.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٥٨

(٢) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ٦٨

(٣) ينظر: تحرير التحبير ١٧١

(٤) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٤٦/٢

الشاهد الرابع:

في سياق حديث ابن الأثير عن المعاظلة، تطرق إلى هذا النوع الذي ينشأ من تكرار الأدوات؛ أعني تكرار حروف المعاني، على نحو يذهب ببلاغة الكلام؛ لما فيه من الثقل في النطق، وصعوبة في الفهم، وعدم قبول الذوق السليم لها، ثم ذكر شواهد على ذلك، منها قول أبي الطيب:(١)

وتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهد

البيت من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة، وفيه يصف فرسه بسرعة الجري، كأنه يسبح في الماء من شدة عدوه، وكم أسعدته بأن أخرجته من شدة وقع فيها؛ بسرعة جريها، وخفة حركتها...وهذا الشاهد من أشهر الشواهد التي يستشهد بها البلاغيون على العيوب التي تلحق الكلام؛ بسبب الثقل الذي نشأ من تكرار الحروف "لها منها عليها"، ولا يخفى على صاحب الذوق الثقل والصعوبة التي يجدها وهو يقرأ البيت، وقد علق ابن الأثير على البيت: "فقوله: "لها منها عليها" من الثقيل الثقيل الثقيل."(٢)، وكلام الرجل بيّن في أن كلام أبي الطيب غاية في الثقل، فلم يرد أن ابن الأثير وصف شعر شاعر بهذا الوصف كما وصف هذا البيت، فهذا يعكس أن البيت متناهي في الثقل.

هذا وقد كان ابن سنان الخفاجي أول من ذم البيت؛ ففي سياق حديثه عن التكرار الذي يخل بفصاحة الكلام ذكر البيت محل الدراسة، ثم قال:" فذلك العيب الذي لا يتوجه عذر فيه"(٣)، لا عذر عنده لأبي الطيب فيما ذهب إليه.

---

(١) من قصيدة من الطَّوِيل يمدح بهَا سيف الدولة ابْن حمدَان أولهَا:

عَواذلُ ذَات الخالِ فيَّ حواسِدُ ... وإنَّ ضَجيعَ الخودِ منِّي لَماجِدُ

يَرُدُّ يدا عنْ ثوبها وهُو قادرٌ ... ويَعصي الهوَى فِي طَيفها وهُو رَاقِدُ

(٢) المثل السائر ٣٠٨/١

(٣) سر الفصاحة ١٠٥

وعلى هذا النهج جاء كلام العلوي:" فقوله: لها منها عليها، من قبيح السبك وسوء التأليف، وما ذاك إلا لأجل تكرر أحرف المعانى؛ فأكسبته هذا الثقل الذى تعافه النفوس،"(١)

كلام العلوي ترديد لكلام ابن سنان وابن الأثير، ولكن هناك أمرا في كلامه يجب التنبيه إليه؛ حيث أرجع قبح السبك، وسوء التأليف إلى تكرار حروف المعاني، وهذا فيه نظر؛ حيث إن تكرار حروف المعاني في ذاته لا يوجب ثقلا، ولا قبحا في السبك، وإنما المعول عليه في ذلك الذوق وحسن الاستعمال، وتناسق هذه الأدوات مع غيرها من أجزاء الجملة، على نحو سديد، لا مشقة في نطقها، ولا صعوبة في جريان اللسان بها؛ ودليل ذلك أنك تجد في الكلام المعجز تكرارا لحروف المعاني، في إطار لا مشقة فيه، اقرأ قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ المائدة: ٤٥، تجد غير ما وجدت في بيت أبي الطيب، فكلام صاحب الطراز على النحو السابق يفتقر إلى شيء من الدقة؛ فلو أرجع الأمر إلى الذوق والاستعمال كان خيرا وأولى.

أما الدكتور شوقي ضيف فقد ذكر أن كثرة الضمائر هي طريقة المتصوفة، وبهذا يكون أبو الطيب قد سلك طريقا يساعده على أن يجعل من الفرس شواهد تشهد لها عليه؛ يقول الدكتور ضيف :" واضح ما في هذه الأبيات من كثرة الضمائر، وهي كثرة تأتي في أساليب المتصوفة لاعتمادهم في أشعارهم على فكرة الحلول وما يتفرع عنها من الملابسة والتجريد، حتى يستطيع الشاعر أن يستخرج من الفرس شواهد تشهد لها عليها، وحتى يستطيع أن يتصور من نفسه خيالًا لحقيقته، وحتى يملأ صاحبه عليه الدنيا، فما له ذهاب ولا منصرف إلا إليه."(٢)، وكلام الدكنور ضيف ليس جديدا؛ حيث أفاد فيه من كلام الثغالبي؛ ففي حديثه عن معايب المتنبي قال:" ومنها امتثال ألفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة،

(١) الطراز ٣/٣٠

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي٣١٨

ومعانيهم، في مثل قوله في وصف فرس."[١]، وذكر البيت، وقريب منه قول الصاحب بن عباد(المتوفى: ٣٨٥هـ) :" كنت أتعجب من كلام أبي يزيد البسطامي في المعرفة؛ وألفاظه المعقدة؛ وكلماته المبهمة، حتى سمعت قول شاعرنا هذا في وصفه فرس"[٢] ، وذكر البيت.

وإذا كان أهل العلم جميعا على ذم البيت، ولم يلتمس أحدٌ منهم عذرًا لأبي الطيب فيما ذهب إليه، فهو من الثقيل الثقيل على حد قول ابن الأثير، فإني وجدت أبا العلاء له في المسألة قول آخر؛ فتكرار الحروف ــ عنده ــ مما لا يعُاب المتكلم به، حيث قال :" وعيب عليه في الجمع بين حروف الجر، والكنايات المتناسبة ولا مطعن عليه. ومثله: في القرآن العظيم قوله تعالى:﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ المائدة٤٥، وقوله:﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ طه: ١٨ ، وفي الشعر قول الكميت:[٣]

إنّ ابن حزم عمرو من ذوى كرمٍ ... لي فيه منه علاماتٌ وآثار

تثنّى على قدر الطّعـــــان كأنّما ... مفاصلها تحت الرّماح مراود

لم يكتف أبو العلاء بأن يستحسن ما استقبحه السابقون، بل ذكر أن تكرار الحروف ليس عيبا؛ بدليل وروده في القرآن الكريم والشعر.

أقول: ما فعله أبو العلاء من الاستشهاد بالآيتين، والبيتين، في غير محله؛ فالمشكلة ليست في تكرار حروف، أو كلمات، أو جملٍ، فالتكرار في ذاته ليس عيبا، بل هو ضرب من البلاغة، قد لا يقوم غيره مقامه في كثير من الأحيان، وإنما المشكلة تتمثل في انسجام التكرار مع سياقه، وهل هو مما تستلذه النفس، ولا تجد له ثقلا، ويقبله الذوق والطبع السليم،أم لا؟ ولو أحال أبو العلاء القضية برمتها إلى الذوق والاستعمال، لكان الحال غير الحال.

---

(١) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ٩١

(٢) الكشف عن مساوي شعر المتنبي ٥٣

(٣) معجز أحمد ٢٦١

وليعد القاريء إلى الآية الكريمة، وإلى بيتي الشعر اللذين استشهد بهما، ثم يقرأ بعد ذلك بيت المتنبي، هل يجد فيه من الأنس، وراحة النفس، وسهولة النطق، كما وجد في الآية وشعر "الكميت".

بل لا أضع التكرار الذي ورد في الآيتين مقارنة بتكرار الحروف في البيت، فالحكم معلوم، حتى ولو لم يكن البيت معابا من أساسه؛ وإنما أضعه مع نظيره من كلام البشر، ولنعد إلى قوله:" سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهد" ثم اقرأ كلام " الكميت"، الذي استشهد به أبو العلاء:" لي فيه منه علاماتٌ وآثار"، تجد هذا غير ذاك، فالثاني جاء سهلا، منسجما مع سائر الكلام.

إن الذوق السليم لا يجامل أحدا، فهو يمدح كلاما، ويذم كلاما، فالتكرار في حد ذاته ليس مذموما، وإنما المذموم منه، ما جاء غير متوافق مع سياقه، وابن الأثير عندما ذكر البيت قال عنه :" من الثقيل الثقيل الثقيل." لم يرد مطلق التكرار؛ وإنما يعني ما جاء مخالفا للذوق كما بيّنت...

الشاهد الخامس:

في حديث ابن الأثير عن التكرار ذكر أن منه ما يكون للفظ والمعنى، أو لأحدهما، ثم بين أن منه ما يكون مفيدا، أو غير مفيد، وبيّن مقصوده للنوعين؛ فإذا جاء التكرار لمعنى كان مفيدا، وإلا فلا، ثم ساق الرجل شواهد للنوعين؛ ومما جاء عنده من التكرار الذي لا فائدة منه؛ مما يجعله عيبا ونقصا في الكلام، قول أبي الطيب:

وَلَمْ أرَ مِثْلَ جِيْرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مَقَامُ[1]

(١) عرض بذم جيرانه ولام نفسه على الإقامة بينهم؛ إذ كانوا لا يجودون بشيء وهو مفتقر إلى جود الكرام؛ فوجب أن لا يكون مثله مقيمًا بين أمثالهم. اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي ١٢٥٦

ثم علق على البيت قائلا:"فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصا. ألا ترى أنه يقول: لم أر مثل جيراني في سوء الجوار، ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم، إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين."(١)

البيت من التكرير الفاحش عند ابن الأثير، وهذا الحكم الذي أصدره الرجل ليس له علة عنده؛ غير أن الشاعر كرر المعنى المسوق له الكلام مرتين، فالرجل لم ير مثل جيرانه في السوء، ولا مثل نفسه في الصبر عليهم، ثم كرر هذا المعنى مرتين.

ولم يكن ذم البيت السابق صنيع ابن الأثير وحده؛ فقد سبق الثعالبي إلى هذا؛ حيث أورده مع عدة أبيات ذكرها تحت عنوان:" تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين"(٢)، وكلامه أخف وطأة من كلام ابن الأثير؛ حيث نفى الحسن عنه فقط؛ ودون أن يبيّن سرا لذلك، أو يصفه بالفحش والنقص كما فعل ابن الأثير.

ثم سار على نهجهم غير واحد من أهل العلم؛ منهم العلوي؛ حيث ذكر البيت وقال:" فهذا وما شاكله ليس من التكرير الحسن"(٣)، لا أذهب بعيدا إذا قلت: إن هذا الكلام مأخوذ من كلام أبي منصور السابق ذكره؛ فكلاهما على نفي الحسن عن البيت، دون بيان سبب.

أما الشيخ محيي الدين درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، فقد أخذ كلام ابن الأثير دون أن يزيد عليه شيئا، أو يشير إلى مصدره؛ ففي سياق حديثه عن التكرير غير المفيد قال:" إذا كان التكرير غير مفيد فهو العي الفاحش، ومن العجيب أن يتورط شاعر كأبي الطيب المتنبي...وذكر البيت محل الدراسة، ثم قال:" ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيراني في سوء الجوار، ولا مثلي في مسايرتهم ومقامي عندهم، إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين"(٤)

---

(١) المثل السائر ٢٥/٣

(٢) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه٨٥

(٣) الطراز ٩٧/٢

(٤) إعراب القرآن وبيانه١٣١/٧

لا يخفي على أحد أن كلامه مأخوذ من كلام ابن الأثير، وغاية الأمر عنده أن التكرار غير المفيد هو العي الفاحش، وإذا به يتعجب كيف يتورط أبو الطيب في مثل هذا ؟! وإذا كان له أن يعجب فعجب العجاب لنا؛ إذ جعل التكرار من العي الفاحش، وورطة من ورطات الأمور!!

هذا ويمكن مناقشة الأقوال السابقة بما يأتي:

أولا: كلام ابن الأثير ومن سلك مسلكه فيه نظر؛ فالتكرار عندهم فاحش وناقص؛ دون أن يذكروا سببا للفحش، أو وجها للنقص، وما زادوا على أن المعنى تكرر مرتين، فإذا كان تكرار المعنى مرتين قبيحا، فإننا سنحكم بذلك على كثير من الشعر الفصيح بالنقص والفحش؛ على حد قول ابن الأثير، ولا قائل بهذا، ولو قال ابن الأثير ما قاله الثعالبي: تكرار لا فائدة منه كان أحسن، وقد حاولت أن أقف مع التكرار من خلال سياقه الذي ورد فيه؛ لأقف على سبب لهذا الفحش والنقص فلم أجد شيئا يحملنا على القول بذلك؛ فهل قصدهم أنه كلام يحمل معنى فاحشا ؟! وهذا لا وجود له، أم هل طريقة بناء الجملة هي التي أملت عليه القول بفحشه ونقصه؟! إنك في كلا الأمرين لن تجد وجها لوصف التكرار في البيت بالفحش والنقص، وفيما قرأت لم أجدا أحدا من أهل العلم وصف تكرارا بما وصف به ابن الأثير بيت أبي الطيب.

ثانيا: ذكرَ ابنُ الأثير بيت أبي الطيب في سياق حديثه عن التكرير الذي فيه إعادة للفظ والمعنى معا؛ حيث قال:" فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه "أسرع أسرع" ومنه قول أبي الطيب المتنبي..."[1] ، وذكر البيت. فالكلام عنده من تكرار اللفظ والمعنى سواء.

وهذا الصنيع لا أرضى به؛ حيث إن بيت أبي الطيب ليس من باب قولنا: "أسرع أسرع" كما فعل ابن الأثير؛ فتكرار الكلام بلفظه ومعناه متحقق في "أسرع

(١) المثل السائر ٣/٣

أسرع" ، وليس متحققا في البيت؛ حيث إن أول البيت يعطي معنى مجملا، والشطر الثاني يعطي تفصيلا لما أجمل؛ وقد أفدت في ذلك من قول ابن أبي الحديد:" التمثيل باللفظة المذكورة وبالآية[١] تمثيل جيد. وأما التمثيل بالبيت فغير جيد؛ لأنه لم يتكرر فيه اللفظ والمعنى حسب تكرره في الآية، وفي اللفظة المذكورة؛ لأنه لم يذكر في صدر البيت إلا في نفي رؤية مثله ومثل جيرانه، ولم يبين في ماذا، ولا هذه المثلية والمشابهة في أي شيء، فمن الممكن أنه كان يعني أر مثلي ومثلهم في حب بعضنا لبعض، أو في بغض بعضنا لبعض، أو في جودنا لم أر مثلي، ومثلهم في حب بعضنا لبعض، أو في بغض بعضنا لبعض، أو في جودنا أو في شجاعتنا، أو في ديانتنا، فلما قال في عجز البيت "لمثلي عند مثلهم مقام" كشف ذلك الإجمال، وأزال ذلك الإبهام، وأبان عن أن مراده لم أر مثلي مقيما بين ظهراني مثلهم، يعني أنهم على غاية الإساءة لعشرته، وأنه على غاية الصبر عليهم، والاحتمال لهم، وأن مقامه عظيم لا يصلح أن يكون مثله مقيما بين هؤلاء الرعاع.

فالشاعر لم يكرر كما تكررت ألفاظ الآية، ولا وجد اللفظ والمعنى معا مرددين مكررين في هذا البيت، ولكن أول ألفاظه يعطي معنى مجملا، والثاني يعطي معنى مفصلا، وهو شرح ذلك المجمل، فلم يكن ذلك تكريرا مشتملا على إعادة اللفظ والمعنى معا، فلم يجز إدخاله في هذا القسم، وذكره في جملة أمثلته."[٢]

بهذا يتبّن أن ما ذهب إليه ابن الأثير ومن سلك مسلكه في هذا البيت لا وجه له؛ فلا حجة لهم في وصف التكرار بالفحش، فلم يزيدوا على لأنه جاء بالمعنى مرتين، والصحيح خلافه، فالشطر الثاني جاء مبينا لما أبهم في أول البيت، على وفق ما بيّنه ابن أبي الحديد.

---

(١) **قوله تعالى:** ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ **الأنفال:** ٧ – ٨

(٢) **الفلك الدائر على المثل السائر** ٢٨٤/٤

المأخذ الخامس: ترتيب المعاني.

ذكر ابن الأثير أن المتكلم إذا أورد في كلامه عدة صفات متعددة في سياق واحد، وجب أن يصوغها على نمط معين؛ وهذا النمط يتمثل في أن يبدأ في صفاته من الأدنى للأعلى؛ وذلك إذا كان المقام مدحا، ثم يعكس المسألة؛ فيبدأ من الأعلى إلى الأدنى إذا كان المقام ذما، يقول ابن الأثير:" وأما الصفات المتعددة فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبة، بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهي إلى آخرها. هذا في مقام المدح، فإن كان في مقام الذم" عكست القضية."(١)، وأورد شواهد متعددة، ثم ذكر بيتا للمتنبي ورد فيه عدة صفات، لم يأت ترتيبها على النحو الذي ذكره ابن الأثير سابقا، يقول:" وكذلك ينبغي أن يكون الاستعمال في مثل هذا الباب. وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك، فمن جملتهم أبو الطيب المتنبي في قوله:(٢)

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ... ليث الشّرى(٣) يا حمامُ(٤) يا رجُلُ

هذا البيت من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار، وقد اشتمل البيت على عدة استعارت تصريحية، حيث استعار لممدوحه البحر، والغمام، والليث، والحمام بمعنى الموت، وقرينة الاستعارة النداء في كلٍ، والترتيب السديد غفل عنه أبو الطيب، كما ذكر ابن الأثير، حيث إن ترتيب الأوصاف في سياق واحد، له نمط خاص أشار إليه الرجل؛ يتمثل في أن يبدأ بالأدنى ثم الأعلى، كما سبق بيانه، وهذا لم يتحقق .

يقول ابن الأثير:"وينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأعلى، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه."(٥)

---

(١) المثل السائر ١٦٦/٢

(٢) المثل السائر١٧١/٢

(٣) الشَّرَى: موضعٌ تُنْسب إِلَيْهِ الأُسْدُ، يُقَالُ للشُّجْعانِ: مَا هُمْ إِلَّا أُسودُ الشَّرى؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَرى مَوْضِعٌ بِعَيْنِهِ تأْوي إِلَيْهِ الأُسْدُ. لسان العرب : شري.

(٤) الحمام: الموت.

(٥) المثل السائر ١٧١/٢

كلام الرجل السابق أشبه بقاعدة وضعها لكل متكلم أراد أن يسلك هذا المسلك، فمتى أورد المتكلم عدة صفات متتالية، فعليه مراعاة ذلك، وإلا وقع فيما نبه إليه الرجل، ثم أخذ يبيّن الوجه الأمثل الذي كان يجب على أبي الطيب أن يرتب كلامه عليه؛ :"فأما قوله: "يا بدر" فإنه اسم ممدوح، والابتداء به أولى، ثم بعده فيجب أن يقول: يا رجل، يا ليث، يا غمامة، يا بحر، يا حمام؛ لأن الليث أعظم من الرجل، والبحر أعظم من الغمامة، والحمام أعظم من البحر، وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخرا، ولو كان مقام ذم لعكس القضية."[١]

كلام ابن الأثير لا أقبل كلّه، ولا أرفض كلّه؛ فأقبل منه أن الصفات إذا تتابعت في الكلام فلابد أن يكون هناك ترتيب معين لهذه الصفات.

والذي لا أقبله أن نجعل صنيع ابن الأثير قانونا عاما يمضي عليه كلّ كلام؛ فإن سار الكلام عليه، وبدأ بالأدنى فالأعلى، ثم الذي يليه حكمنا على الكلام بالبلاغة، وإن خالف هذا النهج يكون صاحبه قد غفل عن النهج السديد.

إن القول الأقرب للصواب في تلك المسألة أن ننظر في السياق، وما يقتضيه النظم، فإن اقتضى أن يسير على ما أرشد إليه ابن الأثير سار عليه، وإن اقتضى غير ذلك عدل عنه إلى ما يقتضيه السياق، فليست المسألة تقديم لفظ وتأخير آخر؛ من أجل أن يبدأ هنا بالأدنى فالأعلى؛ لأن المقام مدح، ويبدأ هناك بالأعلى فالأدنى؛ إذا كان المقام ذما، من أجل أن نساير ما ذهب إليه ابن الأثير، وإنما في المسألة اعتبار آخر؛ وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى هذا فقال: " اللفظ تبع للمعنى في النظْم، وأنَّ الكلمَ تَترتَّب في النُّطق بسببِ تَرتُّبِ معانيها في النَّفس، وأنها لَوْ خَلَتْ من مَعانيها حتى تَتجرَّد أصواتاً وأصداءَ حروفٍ، لما وقعَ في ضميرٍ ولا هَجَس في خاطرٍ، أن يَجب فيها ترتيبٌ ونَظْم، وأن يُجْعَل لها أمكنةٌ ومنازِلُ، وأنْ يجبَ النطقُ

(١) المثل السائر ١٧١/٢

بهذه قَبْل النطق بتلك."[١]، وقال في موضع آخر:" أَنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيب المعاني في نفسِك، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ، بل تَجدُها تَترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها، ولاحِقةٌ بها، وأن العِلْم بمواقعِ المعاني في النَّفُس، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدالة عليها في النطق. "[٢]

فالمعنى كما قال الشيخ أن الألفاظ تترتب وفق ترتيب المعاني في النفس، فلا نستطيع أن نقدم لفظا، ونؤخر آخر دون اعتبار لترتيبها في نفس قائلها، وعليه يجب أن نبحث في خبايا النفوس من أجل الوقوف على أسرار نظم الكلام، ثم معرفة هل ترتيبها في نفس صاحبها هو الترتيب الأجدر بالمقام ؟ أم أن هناك ترتيبا أولى؟

وعليه نريد أن نطبق هذا النهج علي كلام أبي الطيب؛ لنرى هل الصواب ما جاء به؟ أم ما قاله ابن الأثير؟

وقد كفانا ابن أبي الحديد مشقة هذا الأمر؛ فذكر أن ما قاله ابن الأثير لا وجه له، وأن الصواب والأولى في الترتيب الذي جاء به أبو الطيب؛ حيث يقول:" إن أبا الطيب لم يقصد إلا مقصدا صالحا، ولكن هذا الرجل لم يتفطن له؛ لأنه مدحه بالسخاء والشجاعة، وهما المعنيان الشريفان الجليلان، فقال في القسم الأول وهو قسم السخاء يا بحر يا غمامة، وابتدأ بالبحر لأنه دون الغمامة مكانا؛ لأنه تحتها وهي ربته؛ لأنه منها يتكون، ولولا الغمامة لم تكن مياه الغدران والأمطار، وما يتكون منها كالأنهار، فإن هذه الأشياء هي التي يعنيها بالبحر لا البحر الذي هو الماء الملح، ولا الأسطقس الكلي[٣]. ثم قال في قسم الشجاعة: يا ليث الشري يا

---

(١) المثل السائر ٥٦

(٢) دلائل الإعجاز٥٤، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٣) الاسطقسات: لفظ يوناني، بمعنى الأصل، وتسمى العناصر الأربع؛ التي هي الماء والأرض والهواء والنار، اسطقسات؛ لأنه أصول المركبات، التي هي الحيوانات والنباتات والمعادن. التعريفات ٢٤

حمام، فابتدأ بالليث وانتقل إلى الحمام بعده، لأن الليث لولا الحمام لم يرهب، فالحمام أشد رهبة في الصدور من الليث، ثم ختم البيت بقوله يا رجل، أي أنت هذه الأشياء كلها، وأنت مع ذلك إنسان من البشر، وذلك أعجب وأطرف."(١)

آثرت أن أذكر كلام الرجل كاملا؛ لأن فيه بيّانا للأمر، فابن الأثير لم يتفطن إلى ما فطن إليه ابن أبي الحديد؛ فالأول كان يشغله تطبيق الحكم الذي أشار إليه؛ وأن يسير الكلام وفق هذه المسألة، ويمضي من الأدني للأعلى، ثم تبيّن أن البلاغة في ناحية كلام المتنبي، وترتيبه ملائم وفق ما يقتضيه المقام؛ فالرجل يريد أن يمدح الرجل بصفتين؛ الكرم والشجاعة، فجاء بما يتعلق بالكرم في جانب؛ وهو البحر ثم الغمامة، وقدم البحر لأنه دون الغمامة، ومنها يتكون، ثم جاء في الجانب الآخر بما يتعلق بالشجاعة؛ وهو الليث والحمام، ثم قدم الليث لأنه دون الحمام.

إن تمام القول أن يرتب الكلام وفق ما يقتضيه السياق، فإن اقتضى المقام الالتزام بما قاله به ابن الأثير فالسير عليه أولى، ولو كانت المخالفة له مما يطلبه المقام فهي أولى، ثم إن أبا الطيب جمع النظير إلى نظيره أولا، ثم جاء به مرتبا من الأدنى إلى الأعلى كما يريد ابن الأثير، ولو خالف هذا الترتيب إلى غيره لكان الكلام خليطا مبعثرا من الصفات؛ حيث صفة مدح بالكرم مقرونة بصفة شجاعة، فهل نجمع النظير مع نظيره ؟ أم نأتي بأشتات مبعثرة من أجل مراعاة ما قاله ابن الأثير؟!

هذا وعند ابن أبي الحديد إشارة لطيفة، لم يشر إليها ابن الأثير ولا غيره؛ وهي سر تقديم ما يتعلق بالسخاء على ما يتعلق بالشجاعة؛ حيث إن حاجة الممدوح إلى عطاياه أكثر من حاجتهم إلى شجاعته، يقول ابن أبي الحديد:"وإنما قدم السخاء على الشجاعة؛ لأن حاجة جمهور الناس إلى السخاء أكثر من حاجتهم إلى الشجاعة، والناس إلى رئيس عظيم السخاء أميل منهم إلى رئيس عظيم الشجاعة؛ لأن انتفاعهم

(١) الفلك الدائر على المثل السائر ١٤٢/٤

به أكثر، فأبو الطيب قصد هذا المقصد، أو يصح أنه يقصد هذا المقصد، ولو أتى بالبيت على الترتيب الذي ذكره المصنف لم يحصل له هذا المعنى"[١]

في نهاية هذه المسألة أقول: إن الصواب في جانب كلام ابن أبي الحديد، ومراعاة السياق، وحسن الدلالة على المعنى المسوق له الكلام أولى من تطبيق حكم ليس في الكلام ما ينهض به.

المأخذ السادس: فساد التشبيه.

التشبيه أحدُ فنون علم البيان، وهو من أكثر الأساليب استعمالا عند العرب، ومحل اهتمام أهل العلم، وكم قدموا قولا على آخر؛ لأن الأول حسن فيه التشبيه، والثاني دونه، فالتشبيه ــ على حد قول ابن الأثيرــ :" مستوعر الذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة...، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر."[٢]، وجودة التشبيه لها عند أهل العلم طرق كثيرة؛ منها: أن يكون وجه الشبه مشتركا بين الطرفين، وأن يكون الوجه في المشبه به أتم وأفى، يقول ابن الأثير:" إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم."[٣]، فإذا تحقق الوجه في الطرفين على النحو السابق وقع التشبيه من الكلام موقعا حسنا، أما إذا كان الوجه غير متحقق في الطرفين كان التشبيه محل ذم.

وهذا الجانب من الدراسة موضع التفاضل بين الشعراء ــ كما قلت ــ فمنهم من سبق، ومنهم من زلت قدمه. وقد أولى النقاد هذا الجانب اهتماما بالغا، فجعلوه موضعا من مواضع التفاضل ،وابن الأثير واحد من هؤلاء النقاد؛ فكما أشاد بكثير من تشبيهات المتنبي، عابه في أخرى؛ ففي سياق حديثه عن التشبيهات القبيحة، ذكر منها ما كان سببه بعد الوجه بين المشبه والمشبه به، فالأصل في جودة التشبيه عنده اشتراك الطرفين في صفة ما، فإذا خلا الطرفان من وجه مشترك، أو كان الاشتراك

---

(١) الفلك الدائر على المثل السائر.

(٢) المثل السائر ٢/٩٨

(٣) السابق ٢/١٠٠

بعيدا جدا يكاد لا يدرك، كان من قبيح التشبيه، وعلى هذا النحو من القبح ذكر عدة أبيات قَبُح التشبيه فيها، ومما قاله:" ومن التشبيهات الباردة قول أبي الطيب المتنبي:(١)

وَجَرَى على الوَرَق النَّجيعُ القَاني ... فكأنَّهُ النَّارَنجُ في الأغصَانِ(٢)

البيت السابق من قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة، وقد توجه لفتح بلاد الروم، فانتصر عليهم، وأخذت دماء الأعداء تجري على ورق الأشجار، فأصبح كثمرة النارنج في أغصانها، والوجه تلك الحمرة في كلٍ.

هذا ولأهل العلم في التشبيه الوارد في البيت مذهبان:

الأول: يصف التشبيه بالبرودة، والسخافة، والرداءة، والشناعة، وأنه سقطة من سقطات المتنبي التي لا مبرر لها؛ ووجه ذمه أن الاشتراك في الصفة غير متحقق في الوجهين، فالدم لونه أحمر والنارنج ليس كذلك، وعدم تحقق الصفة بين طرفي التشبيه مما يُذهب ببلاغة التشبيه، يقول ابن الأثير: "على أنه قدمنا القول بأن حد التشبيه هو: "أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به"، فإذا لم يكن بهذه الصفة، أو كان بين المشبه والمشبه به بعد، فذلك الذي يطرح ولا يستعمل."(٣)

وعليه فإن مثل هذا النوع من التشبيه يُترك ولا يُستعمل، وعلى نهج ابن الأثير يأتي كلام العلوي؛ حيث ذكر البيت محل الدراسة في سياق حديثه عن التشبيهات البعيدة التي عابها أهل العلم فقال:" فما هذا حاله من التشبيه قد أنكره أهل هذه الصناعة، ووسموه بالنزول والشناعة."(٤)، وذكر البيت محل الدراسة.

---

(١) المثل السائر ١٢٤/٢

(٢) النجيع: الدَّم الطري، وَقيل: دم الْجوف، والقاني الْأَحْمَر الشَّديد الْحمرَة، والنارنج مَعْرُوف وَلَيْسَ بعربي الْمَعْنى يَقُول: لما قتلوا وتمزقت شُعُورهمْ على شجر الْجبَال اسودت وَلما جرى على ورق شجر الْجبَال دماوهم أَحْمَر فَصَارَ لحمرته كَأَنَّهُ النارنج فِي الأغصان. شرح ديوان المتنبي ١٨٤/٤

(٣) السابق ١٢١

(٤) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ١٥٣/١

وقد وافق ابنُ أبي الحديد ابنَ الأثير فيما ذهب إليه؛ فبعد أن ذكر تعليق ابن الأثير على البيت قال: "لعمري إنه معذور في هذا، وهو من سقطات المتنبي التي ينحط فيها."[1]،الرجل يلتمس عذرا لابن الأثير فيما ذهب، فصنيعه ليس جناية منه على أبي الطيب، والبيت سقطة من سقطات المتنبي التي لا مبرر لها.

وقد سلك الشيخُ أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) هذا المسلك، في سياق حديثه عن التشبيهات القبيحة؛ حيث قال:" القبيح هو ما لم يف بالغرض؛ لعدم وجود وجه شبه بين المشبه والمشبه به، أو مع وجوده، لكن على بعد، وما أحق مثل هذا بالاستكراه والذم، وأي شيء أولى بنفور الطبع السليم منه،... وذكر بيتا لأبي نواس وآخر للفرذق وبيت المتنبي محل الدراسة ثم قال:" إذ لا مشاكلة بين لون الدم ولون النارنج."[2]

الأقوال السابقة تكاد تكون قولا واحدا مأخوذا من قول ابن الأثير؛ فوجه ذم التشبيه عندهم واحد، هو عدم اشتراك الطرفين في الصفة، أو هو اشتراك على نحو بعيد، ولم يقل هذا الفريق شيئا ذا بال يُذكر، بل كل صنيعهم أن قالوا ما قاله ابن الأثير.

الثاني: يستحسن ما استقبحه السابقون، والبيت ــ عندهم ــ من فرائد المتنبي ومحاسنه، التي بزّ فيها السابقَ واللاحقَ، وأن التشبيه فيه من الحسن بمكان.

ويأتي على رأس هذا الفريق الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)؛ ففي حديثه عن المحاسن والروائع والبدائع والقلائد والفرائد الَّتِي زَاد فِيهَا المتنبي على من تقدم، وَسبق جَمِيع من تَأَخّر، فَمِنْهَا حسن الْمطَالع، وحسن التَّشْبِيه بِغَيْر أَدَاة التَّشْبِيه،... :"وَمِنْهَا اسْتِعْمَال أَلْفَاظ الْغَزل والنسيب فِي أَوْصَاف الْحَرْب وَالْجد، وَهُوَ أَيْضا مِمَّا لم يُسْبق إِلَيْهِ، وَتفرد بِهِ، وَأظْهر فِيهِ الحذق بِحسن النَّقْل، وأعرب عَن جودة

(١) نصرة الثائر على المثل السائر٦٨

(٢) ينظر علوم البلاغة ٢٣٩

التَّصَرُّف والتلعب بالْكَلَام."[١]، وذكر أبياتا استعمل فيها أبو الطيب ألفاظ الغزل في الحرب، ومنها:

قد سَوّدتْ شجرَ الجبال شعورهم ... فكأنّ فيه مُسِفَّةَ الغربان

وَجَرَى على الورَق النَّجيعُ القَاني ... فكأنَّهُ النَّارَنجُ في الأغصَانِ

البيت عند أبي منصور من الفرائد؛ حيث استعمل أبو الطيب ألفاظ الغزل في أوصاف الحرب؛ فقد جرت العادة عندهم أن يشيه خدُّ المحبوب بالنارنج، فنقله أبو الطيب إلى الحرب والقتلى، وهو ــ كما بيّن الثعالبي ــ مما لم يُسبق إليه، وأظهر فيه حسنا ومهارة.

وقد استحسنه العكبري ت٦١٦هـ ؛ ففي سياق شرحه للبيت قال :"لما قتلوا وتمزقت شُعُورهمْ على شجر الْجبَال اسودت وَلما جرى على ورق شجر الْجبَال دماؤهم أَحْمَر فَصَارَ لحمرته كَأَنَّهُ النارنج فِي الأغصان وَهُوَ حسن"[٢]

وموضع الشاهد في آخر كلامه؛ حيث قال :" وَهُوَ حسن"، دون أن يبين للناس وجه حسنه، كما كان عند الثعالبي.

وممن استحسنه الشيخ يوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)؛ ولكن استحسانه كان مأخوذا من كلام الثعالبي؛ حيث نقل كلامه برمته دون إشارة فقال :" ومن بدائع أبي الطيب استعماله ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد، وهو أيضا مما لم يسبق إليه، وتفرد به، فأظهر فيه الحذق بحسن النقل، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام."[٣]، وذكر أبياتا نهجت هذا النهج منها البيت محل الدراسة؛ فالتشبيه والبيت مما لم يُسبق إليه، فهو من فرائد أبي الطيب ولا يخفى أن القول السابق هو كلام الثعالبي، دون زيادة أو نقصان.

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٢٤٠/١، أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه١١٤

(٢) شرح ديوان المتنبي ١٨٤/٤

(٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي٣٢٣/٢

أقول: نحن الآن بصدد قولين متضادين في شاهد واحد؛ الأول: يرى البيت من سقطات المتنبي التي لا مبرر لها، وحجتهم في ذلك أن تشبيه الدم الذي يجري على ورق الشجر بالنارنج تشبيه فاسد؛ إذ لا وجه للاشتراك بين الطرفين، وعدم وجود صفة تجمع طرفي التشبيه مما يقدح في التشبيه.

والثاني: يجعله من الفرائد التي لم يُسبق إليها، وهو من الحسن بمكان.

إن من يتتبع السياق، ويتأمل طرفي التشبيه يجد الصواب في جانب الفريق الثاني الذي استحسن البيت؛ وأن ما قاله الفريق الأول من عدم وجود مناسبة بين طرفي التشبيه يمكن رده، فهم يقولون إن الوجه، وهو الحمرة متحققة في المشبه، الذي هو الدم، دون المشبه به، فالنارنج عندهم أخضر، فأين هذا من حمرة الدم ؟!

إن تشبيه الشيء بالنارنج بجامع الحمرة لا غضاضة فيه؛ فهذه الثمرة وإن بدت خضراء في أول أمرها لكن عند نضوجها تذهب إلى اللون الأحمر، وقد ذكرت سابقا قول العكبري ، الذي صرح فيه بحمرة ثمرة النارنج:" ولَما جرى على ورق شجر الْجبَال دماوهم أَحْمَر فَصَارَ لحمرته كَأَنَّهُ النارنج فِي الأغصان"، ويقول الأبشيهي:" قال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب... ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجرة.."[1]، فقد صرح أن النارنج طري أحمر، وهو بعينه ما جاء في بيت المتنبي.

هذا وما صنعه أبو الطيب ليس بدعا من القول؛ فهناك شعراء كثيرون شبهوا أشياء بالنارنج بجامع الحمرة في كلٍ، وإليك شواهد على ذلك:

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ٣٨١

قال ابن المعتزّ[١]:[٢]

كأنّما النّـــــارنج لمّا بدت ... صفرته فى حمرة كاللهيب

وجنة معشوق رأى عاشقا ... فاصفرّ ثمّ احمرّ خوف الرّقيب

وقريب منه قول كُشَاجم[٣]:

ترى حمرةَ النارنج بينَ اخضرارها ... كحمرةِ خدٍّ واخضرار عذارِ

إذا لاحَ في كفِّ الندامى عجبتَ منْ ... جنـــان تحايا ساكنوهُ بنارِ

فالنارنج عندهما وجنة المعشوق، وهي في حمرتها وسط الـــورق الأخضـــر كحمرة خد توشح بكساء أخضر.

وفي حديث الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـــ) عن النارنج وهو على الأشجار استشهد بقول الشاعر:[٤]

---

(١) ابن المُعْتَزّ: (٢٤٧ – ٢٩٦ هـــ = ٨٦١ – ٩٠٩ م) عبد الله بن محمد المعتز باللّـــه بـــن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلـــة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وصنف كتبا، منها " الزهر والرياض " و " البديع – ط " و" الآداب " و" الجامع في الغناء " و" الجوارح والصيد " و " فصول التماثيل – ط " و " حلى الأخبار " و" أشعار الملوك " و " طبقات الشعراء – ط " وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس: آلت الخلافة فـــي أيامـــه إلـــى المقتـــدر العباســـي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على صاحب الترجمة، فلقبوه " المرتضى باللّه " وبايعوه بالخلافة، فأقام يوما وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه. وعاد المقتدر، فقبض عليـــه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه. وللشعراء مراث كثيرة فيه.الأعلام ١١٨/٤

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ١١٣/١١

(٣) كُشَاجِم: (٠٠٠ – ٣٦٠ هـــ = ٠٠٠ – ٩٧٠ م) محمود بن الحسين (أو ابن محمـــد بـــن الحسين) ابن السندي بن شاهك، أبو الفتح الرمليّ، المعروف بكشاجم: شاعر متفنن، أديب، من كتاب الإنشاء. من أهل (الرملة) بفلسطين. فارسي الأصل، كان أسلافه الأقربـــون فـــي العراق. تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد، وزار مصر أكثر من مرة. واستقر بحلـــب، فكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله (والد سيف الدولة) بن حمدان، ثم ابنه سيف الدولة. له (ديوان شعر – ط) ، الأعلام ١٦٧/٧

(٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٦٠٦/٢

تطالعنا بين الغصون كأنّها ... خدود عذارى في ملاحفها الخضر[١]

وهذا البيت كسابقه؛ فالنارنج يظهر من بين خضرة الأشجار كخدود عذارى بدت في ملاحف خضر.

ومما قاله ابن سارة[٢] في وصف النارنج:[٣]

يا رب نارنجة يلهو النديم بها ... كأنّها كرة من أحمر الذهب

أو جذوة حملتها كف قابسها ... لكنها جذوة معدومة اللهب

وقوله في وصف النارنج أيضاً:

أجَمْرٌ على الأغصان زادت غضارة ... به أم خدود أبرزتها الهوادج

النارنج عند ابن سارة شبيه بكرة من الذهب الأحمر، أو الخدود الحمراء طلت عليه من هودجها.

فهذا يؤكد أن تشبيه المتنبي الدم بالنارنج بجامع الحمرة ليس غريبا، وإنما هو شائع جار على ألسنة الشعراء، وبناء عليه لا وجه لما أخذه ابن الأثير على أبي الطيب في هذا الجانب، فالرجل سلك طريقا مطروقا عند كثير من أهل العلم، كما أن البيت من محاسن التشبيه عند المتنبي؛ لأنه نقل ألفاظ الغزل إلى مقام الحرب والقتل، وخرجت في أحسن صورة، وأبهى حلة، دون أن تشعر بغرابة في النقل، وأن المشبه ليس من جنس المشبه به، وقد أفدت في هذا من كلام أبي منصور الثعالبي كما سبق ذكره.

---

(١) البيت عند الراغب غير منسوب ، وعند التنوخي البصري (المتوفى: ٣٨٤هـ) ، في "تشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"٢/٢٥٥ من نظم ابن أبي الضحاك، ونسبه أبو هلال العسكري لنفسه؛ ينظر: ديوان المعاني ٢/٣٢

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الأندلسي الشنتريني الشاعر المشهور؛ كان شاعراً ماهراً ناظماً ناثراً، إلا أنه كان قليل الحظ إلا من الحرمان، لم يسعه مكان، ولا اشتمل عليه سلطان، ذكره صاحب " قلائد العقيان "، وأثنى عليه ابن بسام في " الذخيرة "وله ديوان شعر أكثره جيد، وكانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة بمدينة المرية من جزيرة الأندلس وقد تقدم ذكرها. ويقال في اسم جده: صارة وسارة، بالصاد والسين المهملتين. ينظر: وفيات الأعيان٣/٩٣

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر ٣٢٠

المأخذ السابع: **قبح الكناية**.

في حديث ابن الأثير عن الكناية ذكر أنها تنقسم قسمين: أحدهما ما يحسن استعماله، والآخر ما لا يحسن، وذكر شواهد للكناية الحسنة، ثم أخذ يتحدث عما يقبح ذكره منها فقال:" وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية فإنه لا يحسن استعماله؛ لأنه عيب في الكلام فاحش؛ وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه."(١)

وجه قبح الكناية عند ابن الأثير أن يتضمن الكلام عيبا فاحشا؛ وسبب الفحش ــ عنده ــ أنه لا فائدة من ذكر الكناية؛ بمعنى أن يكون غرضك من الكناية أمرا ما، ويأتي الكلام بغيره، ويزداد الأمر قبحا إذا أفادت عكس المعنى المسوق له الكلام تماما، مثلا أردت الكناية عن الكرم فأفادت البخل، أو الكناية عن العفة والنزاهة، فخرج الكلام مخرج الفسق والفجور، كما في البيت محل الدراسة.

وقد ذكر ابن الأثير بيت المتنبي شاهدا على الكناية القبيحة؛ التي لا فائدة من ذكرها؛ حيث أراد أبو الطيب الكناية عن النزاهة والعفة، فخرج الكلام إلى الفسق والفجور، يقول المتنبي:

إنّي على شَغَفِي بِمَا في خُمرِهَا ... لَأَعِفُّ عمَّا في سَراويلاتِها

البيت كناية عن النزاهة والعفة؛ حيث ذكر أنه وإن كان على شغف بما يشتمل عليه خمارها، فهو يعف عما في سَراويلاتِها، وهذه كناية مذمومة عند كثير من أهل العلم، حتى جعلوا التصريح بشيء من الفجور أفضل منها، وقد ذكر ابن الأثير أن أبا الطيب أساء طريق الكناية وأخطأ فيه، ومما قاله :" وهذه كناية عن النزاهة والعفة، إلا أن الفجور أحسن منها."(٢)

وأوّلُ من ذم هذه الكناية الصاحبُ بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ)؛ ففي حديثه عن مساويء المتنبي قال:" وكانت الشعراء تصف المآزر، وتكني بها عما وراءها؛ تنزيهاً لألفاظها عما يستشنع ذكره، حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح

---

(١) المثل السائر٣/٧١

(٢) ينظر: المثل السائر ٣/٧٢

الذي لم يهتد له غيره فقال: ... ــ البيت ــ وكثير من العهر أحسن من عفاف هذا الشاعر"(١)

ذكر الرجل أن من عادة الشعراء الكناية بالمآزر عما وراءها، ولكن أبا الطيب تجاوز المآزر إلى السراويل، وهو مما يستقبح ذكره، حتى جعل الصاحبُ التصريح بكثير من العهر أفضل من هذه الكناية.

وقريب من قول ابن عباد قولُ أبي هلال العسكري: "ومن شنيع الكناية، قول بعض المتأخرين ..

وسمعت بعض الشيوخ يقول: الفجور أحسن من عفاف يعبّر عنه بهذا اللفظ."(٢)

أقول: مذهبُ ابن الأثير مذهبُ غيره من أهل العلم؛ في ذم الكناية الواردة في البيت، بل جعلوا التصريح بالفجور خيرا منها، ولنا أن نسأل: ما سر هذا الهجوم على البيت عندهم؟! في الحقيقة لا أرى سببا لهم إلا ذكر لفظ" السراويلات"، فهي التي ذهبت بالكناية هذا المذهب المذموم عندهم؛ حيث إن السراويل تشتمل على ما تشتمل عليه من معان يستقبح ذكرها؛ من العورة ونحوها، وقد تأكد هذا المعنى عندي بما قاله الثعالبي؛ ففي حديثه عن عيوب أبي الطيب ذكر:" ومنها الركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم"(٣)، وذكر عدة أبيات منها هذا البيت محل الدراسة.

كما صرح ابن سنان بقبح هذه اللفظة فقال :" فلا شيء أقبح من ذكر السراويلات وما أعرف كناية أشهد الله أن التصريح أجمل منها، ووصف عفة سلوك لريب والنهم أحسن من التلفظ بها، إلا كناية أبي الطيب هذه، ونعته عفافه هذا النعت."(٤)

---

(١) الكشف عن مساوي شعر المتنبي ٧٥

(٢) الصناعتين ٣٧٠

(٣) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه٨١

(٤) سر الفصاحة ١٦٥

هذا والركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة والقبح الذي يتحدثون عنه في تلك الكلمة مردود عليهم؛ فالكلمة ذاتها التي ملأت الدنيا قبحا وركاكة ... ــ على حد قولهم ــ قد وردت في البيان النبوي؛ جاء في الصحيح" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَلْبَسُ المُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ يَلْبَسُ القُمُصَ، وَلاَ العَمَائِمَ، وَلاَ السَّرَاوِيلاَتِ، وَلاَ البَرَانِسَ، وَلاَ الخِفَافَ إِلَّا أَحَدٌ لاَ يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ، وَلاَ تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئًا مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ أَوْ وَرْسٌ"(١)

فما قولهم في ذلك؟! إن الكلمة في حد ذاتها ليست قبيحة، كما قال ابن سنان، أو ركيكة وسوقية كما قال الثعالبي، حتى نجعل ذم الكناية برمته راجعا إلى استخدام تلك اللفظة.

ولو وقف السابقون مع البيت وبيّنوا وجه القبح فيه، وأرجعوا الذم إلى نظم البيت كان أجدر وأولى، ولا أجد في نظم البيت ما يقدح فيه، وإنما جاءه الذم من دلالة البيت على معنى مستقبح؛ فالمتنبي أراد وصف نفسه بالعفة والنزاهة، فذم نفسه من حيث لا يدري، فصار حاله حال من كشف امرأة، وأظهر سوأتها للناس، ثم قال: إني أعف عن هذه، فليس القبح والفحش راجعا لكلمة " السَّرَاوِيلاَتِ" كما قال بعضهم؛ فهي في ذاتها لا مشكلة فيها، وقد وردت في الحديث الشريف كما بيّنت من قبل ، وإنما في السياق الذي وردت فيه، فطريقة بناء البيت هي التي أفادت عكس ما قصده صاحبه.

هذا وجدير بي أن أشير إلى أمر مهم، وهو في غاية الدقة؛ أن الذم للبيت لم يأت بداية من دلالته على هذا المعنى المستقبح، فكثير من الشعراء الفصحاء كانوا أكثر جرأة من هذا، ولم يذم شعرهم إلا من يشترط الالتزام بمكارم الأخلاق في الكلام، ومن عدل عن ذلك، ولم يلتزم الأدب، كان كلامه موضع ذم حتى ولو جاء

(١) الجامع المسند الصحيح: بَابُ مَا لاَ يَلْبَسُ المُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ.

بأفصح ما يكون البيان، وأما من لا يشترط هذا، ولايجعل التزام الأدب في كلامه دليل جودة الكلام، فلا مشكلة عندهم؟

وإنما كان البيت مذموما لأن أبا الطيب قصد عفة ونزاهة، وأفاد كلامه عكس ذلك، فلا فائدة في البيت كما قال ابن الأثير، ولو كان الكلام في المجون والغزل بالنساء، ربما كان في المسألة قول آخر، ودليل ذلك أن تقرأ شعرا لإمريء القيس في الجاهليين، ولأبي نواس وغيره من الإسلاميين، غاية في الفجر والفحش، وما قال أحد ما قالوه في بيت أبي الطيب.

إن المحور الذي بنى عليه ابن الأثير كلامه؛ هو خلو الكناية من الفائدة، فالمتكلم قصد شيئا، والكلام أفاد عكسه تماما.

هذا وقد عقد ابن الأثير وغيره موازنة بين قول المتنبي السابق، وقول الشريف الرضي[1] :

أحنُّ إلى ما تضمن الخُمر والحِلي ... وأصدف عما في ضمان المآزر

يقول ابن الأثير: "وأما الضرب الثاني من الكناية فهو الذي يقبح ذكره ولا يحسن استعماله كقول أبي الطيب:.. فإن هذه كناية عن النزاهة والعفة. وعلم الله – عز وجل – أن الفجور لأحسن منها ولقد ذكر الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة فقال:

أحنُّ إلى ما تضمن الخُمر والحِلي ... وأصدف عما في ضمان المآزر

ألا ترى إلى هذه الكناية ما ألطفها، والمعنيان سواء. وبهذا تعلم فضل الشاعرين أحدهما على الآخر؛ وذلك إذا أخذا معنىً واحداً فصاغه أحدهما في

---

(١) الشَّرِيف الرِّضى(٣٥٩ – ٤٠٦ هـ = ٩٧٠ – ١٠١٥ م) محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلويّ الحسيني الموسوي: أشعر الطالبيين، على كثرة المجيدين فيهم. مولده ووفاته في بغداد. انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده. الأعلام ٩٩/٦

صياغة مفردة" [١]، وقال في موضع آخر: "فقول الشريف على ما تراه من اللطافة والحسن، وقول أبي الطيب على ما تراه من الرداءة والقبح"[٢]

بيت الشريف مأخوذ من بيت أبي الطيب، وقد استشهد به أهل العلم ــ في حديثهم عن السرقات الشعرية ــ على من يأخذ من سابقه، فيخرجه في أجمل صورة، وألطف عبارة، فيحسن فيما أساء فيه الأول، وهذا محمود عندهم جميعا، فإذا كان أخذ الشاعر من غيره محل ذم، ونوعا من أنواع السرقة؛ فإن هذا الأخذ مستحسن عندهم؛ حيث أجاد الآخذ فيما أساء فيه الأول، على النحو البيّن في الشاهدين السابقين؛ فبيت المتنبي لا تجد أحدا من أهل العلم ذكره إلا بذم، فلما أخذ الرضيُّ معناه، صاغه أجمل ما تكون الصياغة، وألطف ما تكون العبارة، فلاقى استحسان الجميع.

وعلى هذا النحو جاء كلام البغدادي صاحب " التذكرة الحمدونية" (المتوفى: ٥٦٢هـ)، فبعد أن ذكر بيت أبي الطيب قال:" فافتضح مع قول الرضيّ رضي الله عنه من بعده: [٣]، وذكر بيت الشريف، فبيت الشريف ــ بحسن صياغته، ولطف عبارته، ودلالته على النزاهة والعفة ــ، فضح بيت المتنبي.

وفي النهاية أقول: كلام ابن الأثير عن ذم هذه الكناية في موضعه، وهو قول أهل العلم قبله وبعده، ولكن يجب أن أبين أمرا مهما؛ هذا الأمر يتمثل في جملة قالها ابن الأثير ذُكِرت سابقا وهي:" ما يقبح ذكره من الكناية فإنه لا يحسن استعماله؛ لأنه عيب في الكلام فاحش، وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه."، فالرجل يجعل الكناية التي لا فائدة منها كناية قبيحة، ولا مشكلة في ذلك عندي؛ فالحكم على كل كناية خلت من الفائدة بالقبح لا غضاضة فيه، بل هو عين الصواب، لكن الحكم على هذا النوع من الكناية بالفحش في النفس شيء منه، دعك

---

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ١٦٦

(٢) السابق ٢٤٨

(٣) التذكرة الحمدونية ٣١٢/٧

من كناية أبي الطيب ودلالتها على الفحش، والذي جعلوا التصريح بشيء من الفجور أحسن منها، فهي فاحشة لا لأنها لم تفد المعنى المسوق له الكلام؛ وإنما لأن المعنى الذي أفادته فاحش في نفسه، وهذا فرق دقيق يجب التنبيه إليه؛ حيث إن كلام ابن الأثير في البداية كلام عام، يشمل هذه الكناية وغيرها، وليس من الإنصاف أن نحكم على كل كناية خلت من الفائدة المرجوة لها بالفحش، فهل لو أراد المتكلم بكناية ما معنى مستقبحا، فخرج الكلام في أفضل عبارة، وأفاد معنى لطيفا غير الذي أراده صاحبه، نحكم على المعنى اللطيف بالفحش لأن الكناية خلت من الفائدة؟! حتى تستقيم القاعدة التي وضعها ابن الأثير شرطا لحسن الكناية.

إن القول الأقرب للصواب في هذا المقام أن يقال: كناية غير حسنة، أو قبيحة لخلوها من الفائدة، ولا يقال: كناية فاحشة إلا إذا كانت دلالتها تفيد ذلك، على النحو الذي جاء في كلام المتنبي.

المأخذ الثامن: فساد المقابلة.

في حديث ابن الأثير عن المقابلة، وما يحسن منها وما يقبح ذكر أن مقابلة الشيء بما ليس بضده ضربان؛ الأول: ما كان بين المقابِل والمقابَل نوع مناسبة وتقارب، وذكر له شواهد من الشعر والقرآن الكريم؛ نحو قوله تعالى :﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩، ثم قال:" فإن الرحمة ليست ضد الشدة، وإنما ضد الشدة اللين، إلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة."(١)، والثاني : ما كان بين المقابل والمقابل به بُعد، وذاك مما لا يحسن استعماله، وذكر له شواهد من الشعر؛ منها بيت أبي الطيب :

لمن تطلب الدُّنْيَا إِذْ لم ترِدْ بهَا ... سرُور محبٍّ أَو إساءة مجرم

فالمقابلة ــ عنده ــ غير صحيحة ؛ فليس بين " محب " و مجرم" مناسبة ، فالبعد بينهما في المعنى بيّن؛ يقول ابن الأثير :" فإن المقابلة الصحيحة بين المحب

(١) المثل السائر ١٥٢/٣

والمبغض، لا بين المحب والمجرم، وليست متوسطة أيضًا حتى يقرب الحال فيها، وإنما هي بعيدة، فإنه ليس كل من أجرم إليك كان مبغضا لك." (١)

من المعلوم عند أهل العلم أن التضاد الظاهر بين الألفاظ، أو من جهة المعاني شرط في صحة الطباق وحسنه، وأن المقابلة بين المعاني المتباعدة مما يذهب ببلاغة الكلام، وقد ذكر قدامة بن جعفر فساد المقابلات "هو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر، إما على جهة الموافقة أو المخالفة، فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر ولا يوافقه."(٢)، وقد أخذ ابن الأثير هذا المأخذ على أبي الطيب؛ فبين أن بين" سرور" و"إساءة " تضاد ظاهر ، فلا مشكلة فيه، أما بين " محب " و" ومجرم " فلا يوجد تناسب كما سبق ذكره.

هذا ولم يكن ابن الأثير سابقا إلى هذا المأخذ على المتنبي؛ فقد سبقه صاحبُ "الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى"؛ محمد بن العميدي، (المتوفى: ٤٣٣هـ) في حديثه عن البيت محل الشاهد؛ حيث قال : " ترك الإطباق وأفسد."(٣)، ولكن هل ترك الطباق والعدول عنه إلى غيره ممّا يفسد المعنى ؟ وكأن مجرد قصد الطباق سبيل صحة الكلام !

ثم نهج منهج ابن الأثير غير واحد من أهل العلم؛ ويأتي العلوي ت٧٤٥هـ صاحب "الطراز" في مقدمتهم؛ فقد نقل كلام ابن الأثير برمته؛ حيث ذكر البيت شاهدا على المقابلة التي لا مقاربة بين ألفاظها ولا مناسبة، على نفس طريقة ابن الأثير، ثم قال:" فالمقابلة الصحيحة أن تكون بين محب ومبغض، لا بين محب ومجرم، فإن بين المحب والمجرم تباعدا كبيرا، فإنه ليس كل من أجرم إليك فهو مبغض لك."(٤)، تأثّرُ الرجل بابن الأثير لا يحتاج إلى دليل، فالكلام برمته خرج من مشكاته ، وليس عنده إضافة .

---

(١) المثل السائر ١٥٢/٣.
(٢) نقد الشعر ٧٧
(٣) الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى ١١٥
(٤) الطراز ٢٠١/٢

وعلى المنوال السابق جاء كلام كل من الخطيب القزويني ٧٣٩ه:" ومن فاسد هذا الضرب قول أبي الطيب:"[١]، وكلام بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) " فإن ضد المحب المبغض والمجرم قد لا يكون مبغضا، وله وجه بعيد. يريد المصنف أن بين الإجرام والبغض تلازما بالادعاء، كأنه يشير إلى أن المجرم لا يكون إلا مبغضا له لمنافاة حاله حال المجرم، وكذلك السرور والإساءة لا تقابل بينهما إلا بهذا الاعتبار."[٢]

وكذلك ابن حجة الحموي ٨٣٧ت ه:" وأما قول أبي الطيب:... فمتفق عليه أنه من الطباق الفاسد، فإن المجرم ليس بضد للمحب بوجه ما، وليس للمحب ضد غير المبغض"[٣]

وقد اكتفيت بذكر أقوالهم دون تعليق عليها؛ إذ ليس فيها جديد يذكر، وإنما هو اجترار لكلام السابقين، دون مناقشة، أو إضافة.

هذا ولم يكن القدماء من أهل العلم وحدهم الذين عابوا هذا البيت من تلك الجهة؛ بل إنك تجد كثيرا من المحدثين ممن تحدث عن المقابلة ذكر ما قاله السابقون دون زيادة أو نقصان، ويكفي أن أستشهد بقول الدكتور شوقي ضيف:" واقرأ هذا الطباق للمتنبي.

لِمَنْ تَطْلُب الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُوْرَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

فإنك تحس كأنك لا ترى هذا الطباق الذي أقامه بين السرور والإساءة والحب والإجرام؛ لأن الكلمات لا تتقابل؛ فليست كلمة الإساءة عكس كلمة السرور، ولا كلمة الإجرام عكس كلمة الحب، إنما عكس السرور الحزن كما أن عكس الحب البغض. ولكننا ننسى؛ فقد تركنا القرن الثالث ودخلنا في القرن الرابع، وهو قرن لا يستطيع أن يجاري النهضة العربية التي رأيناها في القرن الثالث، بل هو يتخلف

---

(١) بغية الإيضاح ٥٧٩/٤

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٢٣٠/٢

(٣) خزانة الأدب ١٦٠/١

كما تتخلف هذه المقابلات عند المتنبي أو هذه الطباقات التي يحسن أن نعطيها وصفًا جديدًا يميزها، نسميها طباقات غير دقيقة بل نسميها: طباقات باهتة، فالكلمات لا تتطابق ويحس الإنسان كأن اللون غائب منه لا يراه، فهو لون باهت لي كلون الطباق الزاهي الذي رأيناه عند أبي تمام، بل إن الإنسان يخيَّل إليه أنه لون آخر، فقد انحسرت عنه بعض أصباغه، وغدا لا يتَّشح بهذه الأصباغ الثرية التي كنا نراها في القرن الثالث. لم يعد القرن الرابع يحسن استخدام وسائل التصنيع إلا أن يتولاها بشيء من التكلف يحيلها عن أصباغها كما نرى في هذا الطباق."[١]

أقول: من خلال الكلام السابق يتبيّن لي أن سبب المشكلة هي ما اشترطه البلاغيون لصحة الطباق ؛ من وجود تضاد ظاهر بين الألفاظ، أو وجود مناسبة بين المعاني كما بيّنت من قبل، وهذا الأمر وإن كان حسنا لكن الأحسن منه أن نبيّن أن المعوَّل عليه في حسن الكلام وبلاغته ليس في اجتماع متضادين أو أكثر حتى ينعقد الطباق، أو تكون المقابلة، وإنما مرد ذلك إلى السياق، فقد يعدل البليغ عن كلمة يكتمل بها الطباق أو المقابلة، إلى غيرها هي أولى منها؛ مما يقتضيها المقام، " إن الطباق ليس الهدف منه أن تجمع بين معنيين متضادين وكفى، ولكن لابد أن يكون هناك مغزى وراء هذا الجمع وهدف، ولابد من أن يكون له في المعنى أثر واضح يبقى ببقائه ويذهب بذهابه، وإلا كان ضربا من العبث لا طائل من ورائه.[٢]، وهذا يقتضي أن نقف مع السياق الذي وردت فيه تلك الألفاظ؛ لنرى هل ماجاء به المتنبي كان مراعاة للمقام ؟، وأن اختياره ليس من أجل أن يكتمل لهذا طباقه، ولغيره سجعه وجناسه، وإنما السياق هو الذي يملي اختيار لفظة وترك أخرى .

---

(١) الفن ومذاهبه ٢٨٣

(٢) دراسات في علم البديع ١٩ ، دكتور/أحمد محمد علي ، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٦ه ـ ١٩٨٦م

وعندما نقف مع المعنى المسوق له الكلام في بيت أبي الطيب تجد المعنى لمن تجمع المال إذا لم يكن المال سببا في إدخال السرور على الأحباب، ورد أذى المجرم الذي يكره المال عندك، فالمال تُرضِي به حبيبا، وتدفع به أذى مجرم، إن في دلالة مجرم معنى زائدا لا تجده في كلمة " مبغض" التي عدل عنها؛ فقد يبغضك إنسان ولا يُظهر ذلك، لا في قول ولا في فعل، وإنما يحمل في صدره من الكراهية ما يحمل، وأشد من ذلك المجرم الذي يظهر عداوته في قوله وفعله، فضرر الثاني أشد ، ودفع أذى هذا أولى من دفع غيره، ومثل هذا غالبا ما تكف أذاه عنك بمالك، لأنه ظاهَرَك العداوة، أما الأول فلا يكلفك الأمر بذل مال ونحوه، فما عدل إليه المتنبي أولى .

ثم ليس لابن الأثير ومن سلكوا مسلكه حجة إلا أن فساد المعنى وقبحه بسبب ترك الجمع بين المتطابقين، ولو كان الأمر كما يقولون ما وجدنا القرآن عدل عن الجمع بين المتطابقين إلى غيره، حتى الآية التي استشهد بها ابن الأثير في حديثه عن الطباق تؤكد ما نقول؛ في قوله تعالى :﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩، ثم قال:" فإن الرحمة ليست ضد الشدة، وإنما ضد الشدة اللين، إلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة."[١]

فلو كان الجمع بين المتضادين سببا في بلاغة الكلام لجاء باللين مكان الرحمة في الآية، وإنما آثر الذكر "رحماء" لعلة يقتضيها المقام؛ حيث " اختيرت الرحمة على اللين لأنها محببة إلى النفوس، والمرء يتعلق بها ويرجوها، أما اللين فإنه يوحي بالضعف والرخاوة، وهذا أمر مستكره في المسلم."[٢]

---

(١) المثل السائر ١٥٢/٣

(٢) دراسات في علم البديع٧٠

هذا وقد وجدت بعضا من أهل العلم يستحسنون ما استقبحه السابقون، ويرون البيت من البلاغة بمكان، وما وقفوا عند هذا المأخذ الذي قال به ابن الأثير ومن نهج نهجه ؛فقد ذكره الصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ) في :" الأمثال السائرة من شعر المتنبي"[١]، فالبيت من الأمثال السائرة عنده، ولا يعقل أن يجعله كذلك و قد أفسد فيه المتنبي وأساء على حد السابقين.

وقد انتقى أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) أبياتا من شعر المتنبي التى بلغت في البلاغة ما بلغت، ثم قال :" وَهَذِهِ الأبيات كلهَا غرر وفرائد لَا يصدر مثلهَا إِلَّا عَن فضل باهر وقدرة على الإبداع ظَاهِرَة"[٢]،وذكر فيها البيت محل الدراسة .

ورأيت أبا العلاء المعري يشرح البيت فيقول: " كأنه يخاطب نفسه أو صاحبه فيقول: إن المال إنما يراد به أن تسر الودود، وترغم أنف الحسود، فإذا لم ترد هذين فلماذا تطلب المال؟! وأي معنى في طلب الجاه وحسن الحال؟!"[٣] ، ولم يذكر شيئا يذمه به، و ليس من طبع أبي العلاء أن يسكت على قبيح أو فاسد كما قال من عابه.

وعلى نهج أبي العلاء جاء كلام أسامة بن منقذ (المتوفى: ٥٨٤هـ) صاحب "البديع في نقد الشعر" فقد ذكر البيت ولم يتعرض له بذم [٤]

وإذا كان خلو البيت من العيب يفهم ضمنا من كلام أبي العلاء وأسامة فإن شهاب الدين بن فضل الله القرشي العدوي العمري، (المتوفى: ٧٤٩هـ) قد مدح البيت صراحة ، وذكر فيه كلاما يكتب بذوب التبر؛ حيث قال :" وإنّه لمنقطع القرين، وليث في عرين، ولولا خشية مستدرك لا يدري ما ضمير الشأن لأضربنا

---

(١) الأمثال السائرة من شعر المتنبي٦١

(٢) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ١٣١، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٢٦١/١

(٣) معجز أحمد ٣٨٧

(٤) ينظر: البديع في نقد الشعر ٢٧٩

عن انتقاء شعره في هذا الديوان اكتفاء بشهرته في الأذهان، وعملا على أنّه الشمس لا تخفى بكلّ مكان، وإذا كان لابدّ من الذّكر فمن مخترعه البكر، وأبياتها التي ليس لأحد عليها حكر، قوله في الحكم والآداب والمواعظ.."[١]، وذكر أبياتا منها هذا البيت.

المأخذ التاسع: التخلص القبيح.

من الأمور التي يجب على الشاعر مراعاتها حسن التخلص من غرض إلى آخر، وهو من الأهمية بمكان، ودليل مهارة الشاعر، يقول ابن الأثير:" وينبغي لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جلَّ همتك، فإنه مهم عظيم من مهمات البلاغة."[٢]، فعلى الشاعر أن يحسن السبك بين المعاني، فيجعل المعنى المنتقل إليه من الأول بسبيل، بأن يكون بينهما وشائج قربى، يسلمك الأول إلى الثاني دون أدنى مشقة أو كلفة، أو تشعر أن الثاني ليس من جنس الأول، وأنه لم يخرج من رحمه،" وجعل الأول سببا إليه، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه، ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه، من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه، ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته." [٣]

ويقول العلوي في حديثه عن حسن التخلص:" ومعناه فى ألسنة علماء البيان، أن يسرد الناظم والناثر كلامهما فى مقصد من المقاصد غير قاصد إليه بانفراده، ولكنه سبب إليه، ثم يخرج فيه إلى كلام هو المقصود، بينه وبين الأول علاقة ومناسبة، وهذا نحو أن يكون الشاعر مستطلعا لقصيدته بالغزل، حتى إذا فرغ منه خرج إلى المدح على مخرج مناسب للأول، بينهما أعظم القرب والملاءمة بحيث

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار١٥/٢٠،الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي،الطبعة: الأولى، ١٤٢٣

(٢) المثل السائر ١٢١/٣

(٣) ينظر: السابق.

يكون الكلام آخذا بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ فى قالب واحد، ثم يتفاضل الناس فى التخلص، فعلى قدر الاقتدار فى النظم والنثر يكون حسن التخلص."[١]

ثم ذكر ابن الأثير أن هذا الأمر موضع التفاضل بين الشعراء؛ وذكر شواهد لحسن التخلص عند أبي تمام وأبي الطيب، وأنهما جاءا فيه بما لم يسبقا إليه، ومع ذلك فإن كثيرا من الفحول قد زلت أقدامهم، ولم يحسنوا التخلص في كثير من قصائدهم، وكما أشاد بأبي الطيب من قبل، عابه في مواضع قد أساء في حسن تخلصه؛ ومنها:

الموضع الأول:

يقول ابن الأثير:" اعلم أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتي به قبيحا، كما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي أولها:

مُلِثَّ القَطر أعطِشها رُبوعا [٢]...

فقال عند الخروج من الغزل إلى المديح:

غَدا بِك كلُّ خِلْوٍ مُستهاماً ... وأصبحَ كلُّ مَستُورٍ خَليعا[٣]

أحبّكِ أو يقولوا جرَّ نملٌ ... ثَبيراً أو ابنُ إبراهيمَ ريعا [٤]

يقول ابن الأثير: هذا تخلص ــ كما تراه ــ بارد، ليس عليه من مسحة الجمال شيء، وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص. فينبغي لسالك هذه الطرق

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ١٧٢/٢

(٢) ملث القطر: المطر الدائم. وتمام البيت: وإلا فاسْقِها السمَّ النّقيعا.

(٣) المعنى: الْخَلُو الخالى من هم الْمحبَّة، والمستهام الهائم الذَّاهِب الْعقل والخليع الذى قد خلع العذار وتظاهر بالانتهاك فى الْمحبَّة الْمَعْنى يَقُول: قد أصبح يحبك كل خَال من الْهوى محبا لَك مستهاما والمستور الذى كَانَ يخفى الْهوى انهتك وَافْتَضَحَ بمحبتك. شرح ديوان المتنبي٢ للعكبري/٢٥٢

(٤) يقول لها: إني أحبك إلى أن يقولوا: جر نملٌ ثبيراً وهو الجبل. وهذا لا يكون أبدا، أو إلى أن يقال: إن ابن إبراهيم، خوف وأفزع. وهذا أيضاً غير جائز، فلا يزول حبك أبداً عني، لأن هذين أبداً لا يكونان. معجز أحمد ٧٥

أن ينظر إلى ما يصوغه، فإن واتاه التخلص حسنا كما ينبغي وإلا فليدعه، ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا، كما فعل أبو الطيب."[1]

في الحقيقة لم يكن ابن الأثير أولَّ من أخذ هذا على أبي الطيب؛ فقد سبقه القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)؛ ففي سياق حديثه عن الأبيات التي عابها أهل العلم على المتنبي، قال :" ولعلك لا تجدُ له تخلّصاً مستكرهاً إلا قوله:..."[2]،وذكر البيت، والملاحظ أن الجرجاني ذكر أن هذا تخلص مستكره، دون أن يبيّن وجه الكراهية في ذلك التخلص، بل اعتذر عن هذا البيت وغيره مما قبح التخلص فيه عند أبي الطيب بأن ذكر له عدة قصائد قد برع في حسن تخلصه فيها؛ فكان يقول: يشفع له كذا وكذا، ويذكر شيئا من تخلصاته الحسنة.

وما فعله القاضي الجرجاني هي محاولة منه لأن يدفع عن المتنبي ما رُمي به، كمن أراد أن يتبع السيئة بالحسنة فتذهبها، ولكن يظل المذموم من شعره مذموما، والممدوح ممدوحا، ولا يقدح القبيح في حسنه، ولا يمحو الحَسَنُ قبيحَه.

ثم يأتي بعد الجرجاني ابنُ رشيق القيرواني (المتوفى: ٤٦٣ هـ)؛ ففي سياق حديثه عن حسن الافتتاح، ولطافة الخروج، وجمال خاتمة الكلام، ذكر أن أبا الطيب قد أربى على كل شاعر في جودة فصول هذا الباب الثلاثة، ومع ذلك زلت قدمه في مواضع أراد أن يخرج فيها من الغزل إلى المدح، فقال ما كان تركه أولى من ذكره؛ ومنه هذه الأبيات محل الدراسة؛ يقول ابن رشيق:" ويقع له في الخروج ما كان تركه أولى به، وأشعر له، وإنما أدخله فيه حب الإغراب في باب التوليد، حتى جاء بالغث البارد، والبشع المتكلف، نحو قوله:

أحبّكِ أو يقولوا جرَّ نمْلٌ ... ثَبيراً أو ابنُ إبراهيمَ ريعا

فهذا من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد، وما أظنه سرق هذا المعنى الشريف إلا من كذبة كذبها أبو العباس الصيمري عن لسان رجل زعم أنه

---

(١) معجز أحمد ١٣٨

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٥٤

قال: رأيت رجلاً نام ويده غمرة فجره النمل ثلاثة فراسخ، فقد جعل أبو الطيب مكان الرجل جبلاً."(١)

يرى ابن رشيق أن بيت المتنبي فيه من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد، وكلام الرجل فيه زيادتان ليستا عند أحد ممن تعرض لهذا البيت؛ الأولى: أن المتنبي قصد هذا قصدا؛ ودعاه إلى ذلك ولعه بالإغراب، وأن يثبت مهارته وتفوقه في أن يسلك طرقا لا يسلكها أحد؛ حتى جاء بالغث البارد، والبشع المتكلف، ومحاولة المتكلم إثبات مهارته في الكلام أمر حسن، لكن لا يقوده ذلك إلى أن يستعمل كلمة غريبة، أو معنى عثا، أو خروجا سخيفا متكلفا، وقد سبق أن أشرت إلى شيء من هذا في استعماله الألفاظ الغريبة دون داع.

الزيادة الثانية التي وردت في كلام ابن رشيق؛ أن هذا المعنى في ذاته شريف، وقد سرقه المتنبي من رجل؛ على النحو السابق للحكاية التي ذكرها، فبذلك يكون قد اجتمع عليه سرقة، وقبح تخلص.

هذا ولم أجد أحدا من أهل العلم خالف السابقين فيما ذهبوا إليه؛ فالجميع على ذم صنيع أبي الطيب، فمنهم من أخذ قول ابن الأثير بفصه ونصه، ومنهم من طاف حوله وضمنه كلامه مع زيادة بيان، منهم ابن حجة؛ ففي سياق حديثه عن حسن التخلص ذكر أنه موضع التفاضل بين الشعراء، ونوع من السحر يدل على رسوخ القدم في البلاغة. وتمكن الذهن من البراعة، وإن لم يكن كذلك لم يعد من أنواع البديع. والقرائح تختلف فيه وتتفاوت، وكم زلت فيه قدم الفحول، ثم قال:" وقد عنَّ لي أن أنبه على قبح المخالص التي لا تعد من أنواع البديع، لينفتح ذهن المبتدئ في هذا الفن، فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي، وإن كانت له المخالص الفائقة:..وذكر البيتين، ثم قال: انظر ما أبرد هذا الخلص وأشد تعسفه."(٢)

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/ ٢٤٠

(٢) خزانة الأدب ٣٣١

وعلى هذا النهج جاء كلام ابن معصوم :" ومن قبيح المخالص قول المتنبي أيضاً: ــ وذكر البيتين ــ ..فإن هذا المخلص جمع بين الثقل والبرودة وتعسف المعنى."(١)

القولان السابقان لا يفتقران إلى دليل تؤكد به أنهما خرجا من معين ابن الأثير، وهناك أقوال أخرى نهجت هذا النهج، فتركت ذكرها؛ إذ لا زيادة فيها عما قاله ابن الأثير، فما هي إلا ترديد لكلامه، فلا فائدة من ذكرها هنا.

هذا وكلام ابن الأثير ومن نهج نهجه بيّن في أن أبا الطيب قد أساء في تخلصه في محله، فهو ــ على حد قوله ــ تخلص بارد، ليس عليه من مسحة الجمال شيء، تشعر فيه بالثقل وتكلف المعنى ، ولكن هذا كلام مجمل؛ حيث حكم الجميع بقبح التخلص في البيت، دون أن يبيّن أحد منهم وجه القبح فيه، وتلك طبيعة السابقين؛ يصدرون حكما دون بيانه؛ ولا يقدح هذا في صنيعهم، فتركهم البيان في ذاته بيان، حتى تذهب النفس كل مذهب في السخف والبرودة والتكلف إذا قرأت هذا القول، وحتى يتكبد من جاء بعدهم معايشة النص فيصل إلى ما وصلوا إليه.

أقول: الأبيات محل الدراسة قالها أبو الطيب في مدح علي بن إبراهيم التنوخي، وقد بدأها كعادة الشعراء بالغزل، ثم خلص منه إلى المدح، والمعنى أن حب تلك المرأة لن يزول عنه أبدا، وقد علق زوال حبه على المحال؛ وهو أن يجر النملُ جبلَ ثبير، أو يخاف ابن ابرهيم وهو الممدوح.

وتعليق زوال حبه بجر النمل للجبل رائع لامشكلة فيه، فلن يذهب الحب من قلبه كما لم يستطع النمل جر الجبل، ولكن تعليق زوال الحب بخوف ابن ابراهيم ــ وهو بداية التخلص إلى المدح ــ لا ينسجم والمقام هذا، فلا وجه للمقارنة بين الأمرين البتة؛ فأين خوف الممدوح من جر النمل للجبل؟! فهما بعيدان كل البعد، هذا أمر، الأمر الثاني يتمثل في أنه ليس من اللائق أن يصدِّر مدحه للرجل

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع٢٤٧

بالخوف، حتى وكان منفيا عنه، ففيه من القبح ما لايخفى، فخوف الإنسان أمر وارد، فهل إذا خاف الممدوح زال الحب؟ !! وعليه يذهب حبه، ويخاف ممدوحه، فقبح التخلص جاء من هذين الأمرين، ولو صدَّره بغير ذلك ربما استقام له الكلام. وقد أفدت في هذا مما قاله ابن حجة :" قال :"انظر ما أبرد هذا الخلص وأشد تعسفه، ومعناه أنه علق انقضاء حبها على غير ممكن، وهو أن يجر النمل الجبل المسمى ثبيرًا وأن يخاف ممدوحه، فجعل خوف الممدوح نظير جر النمل لثبير؛ ليقرر أن كلًا منهما من المستحيلات"(١)

هذا والبيت مذموم من جهة أخرى لم يشر إليها ابن الأثير؛ حيث اشتمل البيت على مقابلة غير سديدة؛ حيث قابل بين " خلو" و" مستهاما" ، والذي يطابق " خلو " "مملوء"، ثم جمع بين "مستور " و"خليع"، والذي يقابل الخليع الناسك، ولا وجه لعدوله عن صريح المقابلة إلى غيرها.

وأول من أشار إلى هذا ابن وكيع (المتوفى: ٣٩٣هـ)؛ حيث قال:" ليس هذا مما يلتمس له استخراج سرقة ولكن ذكرته لفساد صنعته لأن ضده المملوء لا المستهام، والخليع ضد الناسك المستور، ولو قال:

غَدا بك كلّ خلوٍ في اشتغال ... وأصبح كلُّ ذي نَسك خليعا

كان أجود لصنعته وكان طباقاً حسناً."(٢)، وقد نقل العكبري كلام ابن وكيع دون زيادة أو نقصان.(٣)

فالبيت عند الجميع مذموم من جهة التخلص، وعند ابن وكيع مذموم من جهتين، ولا يستطيع أحد أن يجد لأبي الطيب عذرا فيما قال.

---

(١) خزانة الأدب ٣٣١/١

(٢) المنصف للسارق والمسروق منه ٤٥٦

(٣) ينظر شرح ديوان المتنبي للعكبري ٢٥٢/٢

الموضع الثاني:

رأينا في الموضع السابق أن أبا الطيب أساء في تخلصه، فجاء به غثا باردا متكلفا، وبعد أن ذكر ابن الأثير هذا الكلام قال:" فينبغي لسالك هذه الطرق أن ينظر إلى ما يصوغه، فإن واتاه التخلص حسنا كما ينبغي وإلا فليدعه، ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا، كما فعل أبو الطيب، ولهذا نظائر وأشباه، وقد استعمل ذلك في موضع آخر في قصيدته التي أولها:

أحْيا وَأَيْسَرُ ما قاسيتُ ما قَتَلا [1]..

فقال:

علّ الأمير يرى ذُلي فَيشفع لِي ... إلى التي تَركتني في الهَوى مَثَلا

والإضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره."[2]

الرجل يقصد أن هذا الشاهد يشبه سابقه في القبح، وأن الإضراب عن هذا التخلص خير من ذكره، ثم ذكر أن هذا الكلام مأخوذ من أبي نواس؛ يقول ابن الأثير:" وما ألقاه في هذه الهوّة إلا أبو نواس؛ فإنه قال:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... هواك لعلّ الفضل يجمع بيننا

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح، لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به قيس."[3]، فكلا الشاعرين يطلب من ممدوحه أن يشفع له عند محبوبه، ولكن خرج بصورة غير لائقة بالممدوح؛ فصاحب المروءة ينأ بنفسه أن يكون في هذا المقام، الذي يصل فيه رجلا بامرأة على نحو حرام، كما سأبيّن.

فهذا التخلص فيه من القبح والشناعة ما لا يخفى؛ لأن أبا لطيب جعل الممدوح في منزلة غير لائقة؛ حيث جعله قوّادا، وهذا من أقبح التخلص في المدح،

---

(١) مطلع قصيدة يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابي المنبجي.وتمام البيت: والبيْنُ جارَ على ضَعْفي وما عَدَلا.

(٢) المنصف للسارق والمسروق منه ٣٤٣

(٣) المثل السائر ١٣٨/٣

والظاهر من كلام ابن الأثير أن بيت أبي الطيب مأخوذ من قول أبي نواس، السابق ذكره، فكلاهما يطلب من الممدوح الشفاعة عند المحبوب، على نحو غير لائق كما ذكرت، وقد ردّ ابنُ رشيق هذا الكلام؛ ففي سياق حديثه عن التخلص القبيح ذكر بيت أبي الطيب محل الدراسة، وحكم عليه بالقبح، ثم قال :" فقد تمنى أن يكون له الأمير قواداً، وليس هذا من قول أبي نواس:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... هوانا؛ لعل الفضل يجمع بيننا

في شيء؛ لأن أبا نواس قال " يجمع بيننا " ثم اتبع ذلك ذكر المال والسخاء به، فقال:

أمير رأيت المال في نعمائه ... مهيناً ذليل النفس بالضيم موقنا

فكأنه أشار إلى أن جمعه بينهما بالمال خاصة: يفضل عليه، ويجزل عطيته، فيتزوجها أو يتسرى بها، وأبو الطيب قال: " يشفع " والشفاعة رغبة وسؤال، ثم أتبع بيته بما هو مقو لمعناه في القيادة فقال:

أيقنت أنّ سعيداً طالبٌ بدَمي ... لَمَّا بصُرتُ به بالرُّمْحِ مُعْتَقِلا

فدل على أنه يشفع، فإن أجيب إلى مساعدة أبي الطيب فذاك، وإلا رجع إلى القهر.."[١]

مفاد كلام ابن رشيق أن بيت أبي نواس ليس من جنس بيت المتنبي؛ فأبو نواس يطلب من ممدوحه أن يجمع بينه وبين محبوبه بالزواج، ولا غضاضة في ذلك، ودليل ذلك أن ذكر في البيت الذي بعده أن يصله بمال يتقوى به على الزواج ممن أحب، أما بيت أبي فإنه طلب من ممدوحه أن يجمع بينهما على النحو الذي ذكره ابن رشيق، فأنزل ممدوحه منزلة رجل قوّاد يجمع بين الرجال والنساء ، دون فرق بين حلال وحرام، وقد ذكر بعد البيت ما يقو هذا المعنى؛ " أيقنت أن سعيداً طالب بدمي..." ، ولن يذهب دم الشاعر إلا إذا كان المسلك حراما، فإما أن يجيبه الممدوح في طلبه هذا ويشفع له، وإما أن يعود المتنبي إلى القهر.

---

(١) العمدة ٢٣٥/١

هذا وقد أجمع أهل العلم على دناءة وقبح هذا التخلص؛ فلم يكن صنيع ابن الأثير بدعا من القول؛ فقد سبقه كثيرون؛ يقول الحاتمي المتوفى ٣٨٨ه:" وهذا من أقبح خروج وأسخف معنى تعاطاه شاعر في مخاطبة ممدوح."(١)

وعلى شاكلته جاء قول ابن وكيع ت ٣٩٣ه بعد أن ذكر البيت:" هذا من أقبح معنى لأنه يريد من الأمير أن يكون قواده عليه معه."(٢)

والكلام نفسه عند ابن حجة (المتوفى: ٨٣٧هـ إذا يقول:" ومن تخاليصه القبيحة أيضًا قوله:

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لي ... إلى التي تركتني في الهوى مثلًا

وسبب قبح هذ المخلص، كونه جعل ممدوحه ساعيًا بينه وبين محبوبته في الوصال، ولا خفاء في دنو هذه المرتبة، وقد سبقه أبو نواس إلى ذلك، ولكنه أقل شفاعة، مع أن الكل قبيح "(٣)

وتمام القول: إن المتنبي قد أساء في تخلصه؛ حيث خرج من الغزل إلى المدح أقبح ما يكون الخروج؛ فكيف يطلب من ممدوحه أن يتوسط بينهما على هذا النحو؟! الذي لا يرضى به ذو مروءة ونخوة، فقد أراد مدح الرجل فجعله قوّدا من حيث لا يشعر، ولا وجه لأبي الطيب فيما ذهب إليه بأي حال من الأحوال، ولو ذكر في شعره أنه يطلب من ممدوحه مالا يعينه على الزواج من محبوبته، أو يشفع له عند أهلها فيزوجوه منها، لكان الحال غير الحال، ولم يكن التخلص مذموما، بل إنه ذكر بعده ما يؤكد سخافة المعنى، ودناءة المطلب فقال:

أيقنت أنّ سعيداً طالبٌ بِدَمي ... لَمَّا بصُرتُ به بالرُّمْحِ مُعْتَقِلا

هذا وقد ذُكر أن أبا نواس قد اعتذر عن بيته الذي هو أخف وطأة من بيت أبي الطيب؛ جاء عند ابن معصوم (المتوفى: ١١١٩ه) أن أبا نواس اعتذر عن ذلك

---

(١) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي و ساقط شعره ٣٣

(٢) المنصف للسارق والمسروق منه ٢٤٣

(٣) خزانة الأدب ٣٣١/١

وقال: ما أردت بالفضل في قولي (لعل الفضل يجمع بيننا) إلا معنى الإفضال لا الممدوح، وهو عذر غير واضح. وتبعه المتنبي في معنى هذا المخلص وزاد عليه فجاء بالطامة الكبرى حيث قال:..ـــ البيت ـــ فأتى بما لا يحتمل التأويل والاعتذار، ولا يقال معه عثار."[١]

فإذا كان أبو نواس يعتذر عن بيته، والذي يمكن أن تجد له مخرجا غير المعنى القبيح، فإن بيت أبي الطيب لا يحتمل التأويل والاعتذار، ولا يقال معه عثار، كما قال ابن معصوم.

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٤٧

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين؛ سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وعلى آله وأصحابه الطاهرين...وبعد.

فإني أحمد الله ــ تعالى ــ أن وفقني لدراسة تلك المآخذ التي استدركها ابن الأثير على أبي الطيب المتنبي، وقد انتهت تلك الدراسة إلى ما يأتي:

١ــ ما أخذه ابن الأثير على أبي الطيب من قبح وابتذال كلمة " اللقالق" في قوله:

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ ربعيةٌ... يصِيحُ الحَصَا فيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِق

في غير محله؛ فقد بيّنت الدراسة أن الكلمة جاءت متمكنة في مكانها، بل ووردت في فصيح الكلام، وقد استحسنها كثير من أهل العلم.

٢ــ استعمال أبي الطيب كلمة " الصرم" في قوله:

أذاق الغواني حسنه ما أذقنني ... وعفَّ فجازاهنَّ عني بالصرم

استعمال قبيح، وكلام ابن الأثير في محله؛ فالكلمة قد تكون فصيحة شائعة على اللسان، ولا غضاضة في استعمالها، ثم تطور دلالة الكلمة إلى معنى مستقبح، تأبه النفس، وقد أكدت هذا بعدة ألفاظ كانت جارية على اللسان العربي، ثم بمرور الزمن صارت مستهجنة مبتذلة.

٣ــ كلمة " جفخت" في قول المتنبي:

جَفَخَتْ وَهُم لا يَجفَخونَ بِها بِهِم ... شِيَمٌ عَلى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ

غريبة مهجورة، وكلام ابن الأثير في محله، وكان بإمكان أبي الطيب أن يعدل عنها إلى ما يقوم مقامها من المشهور المستعمل، ومحاولة الدكتور شوقي ضيف الدفاع عن أبي الطيب محاولةٌ لا وجه لها؛ إذ لا ينهض بها دليل، وأن مراعاة المقام، وما تقتضيه البلاغة أولى مما قاله.

٤ــ ما أخذه ابن الأثير ومن سلكه مسلكه في مسألة " المعاظلة " في محله؛ سواء كانت بتتابع الصفات، أم الحروف، أو ورود الكلام على صيغة واحدة من الجملة الفعلية، ولكن غاب عنهم أن يردوا ذلك إلى الذوق والاستعمال؛ فلا يصح أن

نجعل هذا قانونا عاما ينطبق علي كل كلام جاء على تلك الشاكلة، فهو وإن ثبت صحته في شواهد أبي الطيب، فقد لا يستقيم في شواهد أخرى، وذكرت أمثلة من القرآن الكريم تتابعت فيها الصفات والحروف، دون أن يكون هناك ثقل في النطق، أو صعوبة في الفهم، فالقضية قضية ذوق واستعمال.

٤ــ وصف ابن الأثير للتكرار الوارد في قول أبي الطيب:

وَلَمْ أرَ مِثْلَ جِيْرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مَقَامُ

بالتكرار بالفاحش غير لائق، وما رآه قبيحا فاحشا، رآه غيره حسنا رائقا، وقد جانب ابن الأثير ومن معه الصواب عندما قالوا: إن بيت المتنبي من التكرار الفاحش؛ والصواب أن البيت لا تكرار فيه وإنما يحمل الشطر الأول معنى مجملا ، جاء بيانه في الثاني.

٥ــ حديث ابن الأثير عن فساد ترتيب المعاني في بيت المتنبي :

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ... ليث الشّرى يا حمامُ يا رجُلُ

في غير محله، وأن الترتيب الذي جاء به البيت يتفق والغرض المسوق له الكلام؛ على النحو الذي أشار إليه ابن أبي الحديد، وبيّنته الدراسة.

٦ــ مأخذ فساد تشبيه الدم بالنارنج في غير محله تماما؛ فالتشبيه بالنارنج بجامع الحمرة شائع جار على اللسان، بل جعل كثير من أهل العلم بيت المتنبي من الفرائد التي سبق إليها؛ حيث استعمل ألفاظ الغزل في الحرب.

٧ــ قبح الكناية الذي أشار إليه ابن الأثير في حديثه عن بيت المتنبي:

إنّي على شَغَفِي بِمَا في خُمرِهَا ... لَأَعِفُّ عمَّا في سَراويلاتِها

في محله، فهي كناية قبيحة، يكاد يكون الفجور أفضل منها، ولكن يؤخذ على ابن الأثير أنه يجعل كلَّ كناية خلت من الفائدة كناية فاحشة، فالأولى أن يقال: كناية غير مفيدة، أو قبيحة، فلفظ الفحش غير لائق، فقد تخرج الكناية عن مراد صاحبها، ولا تفيد الفحش الذي ذكره ابن الأثير.

٨ ــ حديث ابن الأثير عن سوء المقابلة في قول أبي الطيب :

لمن تطلب الدُّنْيَا إِذْ لم ترِدْ بهَا ... سرُور محبٍّ أَو إساءة مجرم

في غير محله؛ فاشتراطه اجتماع المتضادين من أجل حسن المقابلة أمر حسن، ولكن الأحسن منه مراعاة السياق، ومقتضى الحال، وقد ذكرت أن الذكر الحكيم عدل عن صريح الطباق إلى غيره؛ من أجل تمام المعنى، فالقضية قضية وفاء الألفاظ بالمعنى، لا قضية الجمع بين المتضادين من أجل أن تكتمل المطابقة فحسب.

٩ــ ما أخذه على أبي الطيب من قبح التخلص في قوله:

أحبّكِ أو يقولوا جرَّ نمْلٌ ... ثَبيراً أو ابنُ إبراهيمَ ريعا

وقوله:

علّ الأمير يرى ذُلي فَيشفع لِي ... إِلى التي تَركتني في الهَوى مَثَلا

في محله تماما؛ فقد أساء أبو الطيب في خروجه من الغزل إلى المدح في الموضعين؛ ففي الموضع الأول لا علاقة بين جر النمل جبل ثبير، وبين خوف الممدوح، ثم ليس من اللائق أن يصدر مدحه بخوف الممدوح. وفي الموضع الثاني عاب ممدوحه دون أن يدري؛ حيث جعل من منه قوادا، فأفسد المعنى، وأساء في تخلصه.

وبعد ..فتلك بضاعتي؛ إن وجدت فيها خيرا فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بشر، والله نسأل أن يسترنا، ويغفر لنا تقصيرنا، وصلى الله وسلم على النبي المختار، وصحبه الأبرار، وآل بيته الأخيار الأطهار، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١ــ أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: مكتبة الحسين التجارية – القاهرة.

٢ــ أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، المحقق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر ــ بيروت.

٣ــ أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٤ــ أصول الإنشاء والخطابة، المحقق: ياسر بن حامد المطيري، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ.

٥ــ إعراب القرآن وبيانه ، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية ــ حمص ـــ سورية، الطبعة: الرابعة ، ١٤١٥ هـ.

٦ــ الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى، تقديم وتحقيق وشرح: إبراهيم الدسوقي البساطي، الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر، عام النشر:١٩٦١م.

٧ــ الأسلوب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة ٢٠٠٣.

٨ــ الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٩ــ الأمثال السائرة من شعر المتنبي، المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، الناشر: مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥ م.

١٠ــ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

١١ــ البديع في نقد الشعر، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى

١٢ــ البلاغة العربية، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ م، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

١٣ــ تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
١٤ــ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٣، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان الطبعة الأولى: ١٣٩١هـ – ١٩٧١م.
١٥ــ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
١٦ــ التحرير والتنوير ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
١٧ــ التذكرة الحمدونية، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
١٨ــ جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، جمعها وقرأها ووثقها: محمد الطاهر الميساوي، الناشر: دار النفائس ،الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م
١٩ــ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ه
٢٠ــ خزانة الأدب وغاية الأرب، المحقق: عصام شقيو ، الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت ، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م
٢١ــ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، المؤلف: د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، الناشر: مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.
٢٢ــ دراسات في علم البديع، دكنور/أحمد محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٠٦ه ــ ١٩٨٦م
٢٣ــ دلائل الإعجاز، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر ، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٢٤ــ ديوان المعاني، الناشر: دار الجيل – بيروت
٢٥ــ سر الفصاحة ، الناشر: دار الكتب العلمية ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

٢٦ــ شرح ديوان المتنبي للعكبري ، المحقق: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي الناشر: دار المعرفة – بيروت.
٢٧ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٨ــ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (مطبوع بهامش شرح العكبري)، الناشر: المطبعة العامرة الشرفية ، الطبعة: الأولى، ١٣٠٨ هـ.
٢٩ــ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م
٣٠ــ الصناعتين، المحقق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، المكتبة العنصرية ١٤١٩ هـ.
٣١ــ الصورة الأدبية تاريخ ونقد، الدكتور/ علي علي صبح، الناشر: دار إحياء الكتب العربية
٣٢ــ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .
٣٣ــ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م
٣٤ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
٣٥ــ الفلك الدائر على المثل السائر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ــ القاهرة.
٣٦ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثالثة عشرة
٣٧ــ كتاب التعريفات، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م
٣٨ــ كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٣٩ــ الكتاب المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٤٠ــ الكشف عن مساوي شعر المتنبي، المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، الناشر: مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
٤١ــ لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
٤٢ــ اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، المحقق: محمد سعيد المولوي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
٤٣ــ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ
٤٤ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ
٤٥ــ معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.
٤٦ــ معجم المؤلفين، الناشر: مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٤٧– مفاتيح العلوم، المحقق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الثانية.
٤٨ــ مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ .
٤٩ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ــ القاهرة.
٥٠ــ المخصص، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م
٥١ــ المستطرف في كل فن مستطرف، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ

٥٢ــ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
٥٣ــ المنصف للسارق والمسروق منه ، المحقق: عمر خليفة بن ادريس ، الناشر: جامعة قات يونس، بنغازي ، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.
٥٤ــ المنهاج الواضح للبلاغة، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث
٥٥ــ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م
٥٦ــ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، عام النشر: ١٣٩١ هـ
٥٧ــ نقد الشعر ، الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢.
٥٨ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية،الطبعة: الأولى١٤٢٣ هـ.
٥٩ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الأولى ١٩٧١
٦٠ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي ، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي .
٦١ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م

محتويات البحث.

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٦٢٩
٢-	Abstract	١٦٣٠
٣-	مقدمة.	١٦٣١
٤-	تمهيد.	١٦٣٥
٥-	المطلب الأول: التعريف بالمتنبي.	١٦٣٥
٦-	المطلب الثاني: التعريف بابن الأثير.	١٦٣٨
٧-	المآخذ.	١٦٤٠
٨-	المأخذ الأول: الألفاظ المبتذلة.	١٦٤٠
٩-	الموضع الأول: كلمة اللقالق.	١٦٤١
١٠-	الموضع الثاني: كلمة الصرم.	١٦٤٦
١١-	المأخذ الثاني: الكلمات الغريبة.	١٦٥٠
١٢-	المأخذ الثالث: قطع الكلمة عما بعدها.	١٦٥٧
١٣-	الشاهد الأول.	١٦٥٨
١٤-	الشاهد الثاني.	١٦٦٦
١٥-	المأخذ الرابع: المعاظلة.	١٦٧٠
١٦-	الشاهد الأول.	١٦٧١
١٧-	الشاهد الثاني.	١٦٧٣
١٨-	الشاهد الثالث.	١٦٧٥
١٩-	الشاهد الرابع.	١٦٧٧
٢٠-	الشاهد الخامس.	١٦٨٠

م	الموضـوع	الصفحة
٢١-	المأخذ الخامس: ترتيب المعاني.	١٦٨٤
٢٢-	المأخذ السادس: فساد التشبيه.	١٦٨٨
٢٣-	المأخذ السابع: قبح الكناية	١٦٩٥
٢٤-	المأخذ الثامن: فساد المقابلة.	١٧٠٠
٢٥-	المأخذ التاسع: التخلص القبيح.	١٧٠٦
٢٦-	الموضع الأول.	١٧٠٧
٢٧-	الموضع الثاني.	١٧١٢
٢٨-	الخاتمة.	١٧١٦
٢٩-	ثبت المصادر والمراجع	١٧١٩
٣٠-	محتويات البحث.	١٧٢٤